جان بول سارتر

مكتبة بغداد

تاريخ حياة طاغية

ترجمة

د. عبد المنعم الحفني

هو أول سيناريو كتبه جان بول سارتر، وكان وقتئذ من المتحمسين للسينما، واقتبس منها الكثير في مسرحياته، فلما طلبوا منه الكتابة لها دفع إليهم بهذا السيناريو الذي يعد بيانًا عاليًا لفلسفته في الطغيان والسياسة والحكم ووضعية الإنسان..

مكتبة مدبولى

سارتر، جان بول
تاريخ حياة طاغية
تأليف جان بول سارتر
ترجمة د. عبد المنعم الحفني
ط ١. - القاهرة : مكتبة مدبولى، ٢٠١٣م.
٢٢٤ ص ١٤,٥ × ٢١,٥ سم.
تدمك : 978-977 - 208 -970-3
١ - الفلسفة الغربية
أ- الحفني، عبد المنعم (مترجم)
ب- العنوان
ديوى / ١٩٠
رقم الإيداع : ٢٠٨٨٠ / ٢٠١٢
مكتبة مدبولي
٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة
ت : ٢٥٧٥٦٤٢١ - فاكس : ٢٥٧٥٢٨٥٤
الموقع الإلكتروني : www.madboulybooks.com
البريد الإلكتروني : info@madboulybook.com

جان بول سارتر

تاريخ حياة طاغية

ترجمة / د. عبد المنعم الحفني

مكتبة مدبولي
٢٠١٣

L' ENGRANAGE

هو أول سيناريو كتبه جان بول سارتر، وكان وقتئذ من المتحمسين للسينما، واقتبس منها الكثير في مسرحياته، فلما طلبوا إليه الكتابة لها دفع إليهم بهذا السيناريو الذي يعد بيانًا عاليًا لفلسفته في الطغيان والسياسة والحكم ووضعية الإنسان..

الثورة في المدينة...

تقوم مؤسسة البترول الضخمة بآبارها وخزاناتها ومعامل تكريرها ومحركاتها على أطراف المدينة. المؤسسة كلها يخيم عليها السكون وقد توقفت بها الحركة تمامًا.

يتوسط المدينة والمؤسسة حي العمال. وهو خالٍ الآن تمامًا، وأغلقت أبواب محاله العامة. وهناك مصباح غاز، تدلى منه تمثالي كمشنوق، علقت على صدره لوحة كتب عليها بحروف بارزة كبيرة:

الطاغية جون آجيرا

أحد المطابخ في بيت من بيوت العمال...

امرأة عجوز تجلس على المقعد المجاور للفرن، تنظر في سهوم وقلق إلى الفضاء. وأمام النافذة تقف امرأة شابة، وجهها يبدو عليه الإنهاك، تنظف سترة رجل وتتطلع إلى التمثال المشنوق من زجاج النافذة.

تسمع من بعيد أصوات انفجارات وبنادق رشاشة. تسقط المرأة الشابة الفرشاة من يدها، وتقترب من النافذة أكثر، مصغية بينما تنهض العجوز، وتقول في ضجر:

- لا يزالون يطلقون النار. ترى متى ينتهون؟

وتجيبها المرأة الشابة مشيرة إلى التمثال المشنوق:

- عندما يشنقونه حقيقة.

أهم شوارع المدينة...

أحد الشوارع التجارية العريضة، وفي آخره بناية ضخمة هي القصر الحكومي. الشارع لا أحد فيه، ومعظم المحلات قد أغلقت أبوابها. وفي وسط الشارع توجد عربة ترام قلبها الثوار. وبجوار الحائط تمددت جثة أحد العمال، يرتدي قميصًا أزرق، وقد عقد ساعديه على صدره عندما فاجأه الموت، وأمامه توجد بندقية.

تنطلق رصاصة ثم يسود السكون، وبعد فترة يخرج أحد الثوار من أحد الأبواب، ممسكًا بندقية، ويعدو محتميًا بالحائط ومتجهًا إلى القصر الحكومي، والرصاص ينهمر عليه من البنادق الرشاشة، فيلقي بنفسه على الأرض خلف الجثة. وحينئذ يتوقف إطلاق النار، فينهض الرجل، ويأخذ بندقية الميت، ويجري من جديد حتى يدخل إحدى العمارات.

ساحة إحدى العمارات...

يتجمهر بها نحو عشرين من الثوار وقد تسلحوا تمامًا، وفيهم بعض النساء، يقترب رئيسهم من الثائر الذي قابلناه في المشهد السابق ويسأله..

- ما هي أخبارك؟
- احتللنا مبنى التليفونات، لكنهم ما يزالون يحتفظون بثكنة يابول. أما الطاغية آجيرا فلم يبرح قصره.

ومن بعيد يسمع أزيز البنادق الرشاشة..

غرفة القصر الحكومي

غرفة كبيرة عادية، بها منضدة مغطاة بالقطيفة، عليها صينية اصطفت عليها الكؤوس، ويجلس على رأسها ماتير وزير الداخلية، قصير القامة أصلع، وقد تملكه الذعر، بينما وقف تسعة من كبار رجال الدولة في ملابسهم العسكرية والمدنية، معتدلي القامة رابطين ساكنين، وإن كان التعب واضحًا على وجوههم، ولحاهم طالت، وتهدلت ملابسهم، ويبدو عليهم أنهم لم يناموا ليلتهم التي مضت.

لا يضيئ الغرفة إلا نور القمر الذي أخذ يطلع على المدينة المذعورة. وفجأة تنطلق رصاصات قريبة جدًا من الغرفة،

فتطيح إحداها بزجاج النافذة وتستقر في السقف، وينهض ريباز وزير الخارجية، وهو ضخم ثقيل الحركة بارز العظام ذو شارب غليظ غير منظم، ويتجه بهدوء نحو النافذة المكسورة يرقب منها ما يجري بالخارج.

ينفتح باب الغرفة ويدخل ضابط مبهور الأنفاس، فيلتفت الكل إليه، ويقوم وزير الداخلية ماتير من مقعده، لكن الضابط يقول لهم معلناً:

- إنهم يقتربون. يقومون بهجومهم الأخير.

ويستمع الجميع إليه ولا يظهر على وجوههم ما يدور في نفوسهم، كما لو كانوا يخشون من بعضهم إظهار حقيقة مشاعرهم، ثم يقول ريباز ببساطة:

- سأذهب وأبلغه.

غرفة نوم جان آجيرا...

غرفة صغيرة بسيطة بساطة شديدة، ولا تحتوي إلا على سرير وكرسيين ومنضدة صغيرة ومقعد.

نرى جان واقفاً أمام المرآة، في الأربعين من عمره، ضخم الجثة عريض المنكبين، إحدى ذراعيه مصابة بالشلل، يرتدي

حذاء أسود وسروالاً عسكريًا وقميصًا غامقًا. خادمه يرتـــدي ملابس سوداء، ويحاول أن يربط له ربطة عنقه، فيدق الباب..

جان : ادخل!

يدخل ريباز وزير الخارجية، فيومئ جان إلى الخادم بالذهاب، ويغادر الأخير الغرفة، فيغلق ريباز الباب وراءه ويقول:

إنه الهجوم الأخير!

جان : (بهدوء) حسن... (ويتجه إلى النافذة ويتطلع إلـــى الخارج) إذن فقد انتهينا!

ريباز : ربما، لكنهم لن ينتصروا بسهولة، فوراء كل نافذة مدفع رشاش.

جان : (يعود ويقف في مواجهة ريباز) كلف كرافر أن لا يطلق النار!

ريباز : كلا، لن أفعل.

جان : ماذا؟

ريباز : لن أفعل. سينالون رأســـي علـــى أي حـــال، إذن فليدفعوا ثمنه!

جان : لكن المهاجمين من عمال البترول!

ريباز : (يهز كتفيه) وماذا في ذلك؟

جان : إنهم أحسن ما في الدولة، ويجب أن لا نقتلهم!

(ريباز لا يتحرك فتتغير لهجة جان) إني آمـرك. أتفهـم؟ آمرك. (يظل ريباز يحدق في جان لحظة ثم يخفض رأسـه. جان يتجه إلى الجرس المثبت فوق رأس السرير ويـضغط عليه، ويقول لريباز):

- اذهب.

يخرج ريباز في اللحظة التي يدخل فيها الخادم. جان يتطلع من النافذة، ثم يهتف آمرًا دون أن يستدير..

- ويسكي..

الخادم يحضر قدحًا يفرغه جان دفعة واحدة ثم يأمره قائلاً:

- سترة الاحتفالات.

الخادم يذهب إلى دولاب ملابس يفتحه بينما جان ينظر إليه من ظهره ويقول له دون اكتراث:

- لقد انتهيت، وسأسلمك إلى من سيخلفني.

قاعة القصر الحكومي...

ما زال كبار رجال الدولة في الغرفة، ولكنهم الآن أمام النوافذ وقد أطبق السكون، وفجأة تندلع ضجة هائلة من تحت النوافذ، ثم يعود السكون من جديد حتى يقطعه ريباز قائلاً:

- لقد دخلوا.

يفتح أحد الأبواب ويدخل الخادم وينحني ويقول:

- معاليه يرجوكم الدخول.

مكتب جان آجيرا الطاغية...

الغرفة واسعة ومكتبها ضخم فخم مغطى بالكتب والملفات. وعلى طرفه صينية عليها زجاجة ويسكي وزجاجة سيفون وبعض الكؤوس. على الحوائط تمتد رفوف الكتب وقد امتلأت بالكتب والملفات. وهنا وهناك توجد مقاعد مريحة وإحدى الأرائك العريضة.

جان جالس خلف مكتبه وقد ارتدى ثياب الاحتفالات الرسمية. يدخل عليه كبار رجال الدولة بخطوات مترددة ويقتربون من جان الذي ينهض ويتطلع إليهم مقطبًا:

- أعتقد أن نصفكم على الأقل خونة. ترى من يكون الخائن فيكم؟ لن تمضي ربع ساعة حتى أعرف الحقيقة...

يقف الكبراء أمام المكتب على هيئة نصف دائرة. جان يتطلع إليهم في قسوة، ويمشي ببطء أمامهم كأنه يستعرضهم، ويشير إلى بعضهم ويقول:

- أنت.. مؤكد، إنما.. غير مؤكد لكن من المحتمل.. أما أنت فسحنتك..

يمر جان أمام ريباز وعندئذ يقول..

- أنت.. طبعا لا، لا يمكن أن تكون خائناً.

يبتسم جان لداريو الذي يقف إلى جوار ريباز، ويضع يده على كتفه.

داريو يرد على ابتسامته بابتسامة شاحبة.

- وأنت طبعًا لا يمكن أن تكون خائنًا.. كنت أحبك دائمًا.

يسمع صوت خطوات وصياح خارج الغرفة فيعود جان إلى مكتبه ويقف خلفه... يفتح الباب ويزدحم بالثوار المسلحين. ريباز يخرج مسدسه ويطلق النار ليسقط أحد الثوار، ويدوي

طلق آخر يسقط على أثره ريباز. لكن جان يسرع بين الثـــوار ورجاله وهو يهتف..

- لا يطلق أحدكم النار... ادخلوا.

يتدافع الثوار مترددين.. ثم ينسل أحد أعوان جان منــضمًا إلى جمهور الثوار، ويتبعه بقية الأعوان الواحد بعــد الآخــر متحاشين نظرات جان الذي يتطلع إليهم ساخرًا:

- كلكم؟ عال! عال جدًا!

يبقى داريو حتى الآخر ثم ينضم إليهم.

- وأنت أيضًا يا داريو؟

لا يرد داريو.

جان : كنت أحسبك تحبني..

داريو : أجل، كنت أحبك.. لكن ما الفائدة؟

يهز جان كتفيه ولا يتكلم، يواجه جمهور الثائرين وحيدًا. مــا يزالون يخشونه ويرهبونه. فجأة يندفع ثــائر مــن وســطهم ويصفع جان بكل قوته فيرد عليه جان، عندئذ يلقي الثــائرون أنفسهم على جان ويطرحوه أرضًا، فيدوي صوت:

- قفوا!

يدخل فرانسوا وسوزان إلى القاعة، ويشقان طريقهما وســط

الثائرين ويتجهان إلى جان..

- قفوا! هذا الرجل أسيرنا فلا يمسه أحد.

يستدير جان إلى فرانسوا، ويحدق الرجلان في بعضهما. سوزان تقف إلى جوار فرانسوا، وتنظر إلى جان نظرات كلها كراهية جان لا يراها.

جان : وصلت يا فرانسوا.. كنت أعتقد أنني سأراك هنا، نجحت.

فرانسوا : (يتطلع إلى جان بفضول وحدة) لم ينته كل شيء... لكننا سننالك.

جان : (بصوت ودود) ليس الصعب أن تقتل إنساناً... الصعب كل ما هو غير القتل. ستدرك ذلك بنفسك. مضى زمن طويل منذ أن رأيتك آخر مرة. كان ذلك منذ خمس سنوات. وقتها لم تكن قد انقلبت عليّ...

سوزان : (وقد تقدم إليه، بغضب ووعيد) وأنا يا جان؟ أتذكر آخر مرة لقيتني فيها؟

جان : (يتجاهلها ويقول لفرانسوا) كنت أعرف أين تختبئ، وكان في وسعي اعتقالك!

فرانسوا : ولماذا لم تفعل؟

جان : لأنني لو فعلت لأرقت دمًا لا داعي لإراقته.

سوزان : (مقاطعة) سنكون أقل كرمًا منك فدمك لا يخيفنا.. سنجعلك تدفع الثمن! (يستمر جان في تجاهلها؛ تقول بغضب) هل تسمعني؟ لا تجرؤ على التطلع في وجهي! إني أخيفك!

جان : (مستديرًا إلى خادمه هاتفًا) ويسكي...

الخادم لا يتحرك ويبتسم في احتقار. جان يتجه إلى المنضدة ويسكب لنفسه كأسًا ويشربه، وهنا يكون صمته إزاء سوزان واحتقاره لشأنها قد استنزف صبرها، وأتعبها...

سوزان : (زاعقة) أجب.. ألا تريد؟ لا تريد أن تجيب؟ سأجعلك ترى وتحس وجودي.. خذ..

تبصق في وجهه. لا يتفادى جان البصقة ولا يمسح وجهه ويظل يشرب كأسه ويسأل فرانسوا...

جان : ستقتلوني؟

فرانسوا : كلا.. هذا ما تريده وتتمناه. سنحاكمك...

جان : ومن سيحاكمني؟

فرانسوا : (مشيرًا بإصبعه في دائرة) كلنا...

جان : وبأي قانون؟

فرانسوا : بقانوننا.

جان : إذن فلن أدافع عن نفسي...حتى تغتالوني اغتيالاً. (صمت) كم مات منكم؟

فرانسوا : كثيرون.

جان : مئتان؟

فرانسوا : أكثر.

جان : لكي تقضوا عليّ! هذا كثير!

سوزان : (زاعقة) وستدفع ثمن موتهم!

فرانسوا : ليس هذا بكثير من أجل سحق طغيانك القذر.

جان : (يهز كتفيه وقد تعب وأصابه السأم) ستتفوق عليَّ في طغيانك، لأن أحكامك مطلقة أكثر مما يجب، لذلك ستكون مخيفًا رهيبًا.

المحكمة...

غرفة أقيمت ارتجالاً في صالة الاحتفالات بالقصر، عبارة عن منضدتين قد وضعتا بعضهما إلى جوار بعض من

الطرفين، وخلفهما في مواجهة الجمهور يجلس عشرون شخصًا: ست نساء وأربعة عشر رجلاً، هم هيئة المحلفين. أما الرجال فمنهم أربعة عرفناهم ونراهم الآن في ملابسهم الرسمية وقد تحلوا بأوسمتهم، وثمانية من العمال يرتدون القمصان الزرقاء أو السترات الجلدية، والاثنان الباقيان يبدو عليهما أنهما من البورجوازية الصغيرة.

وعلى المنضدة المستطيلة نرى أسلحة المحلفين الثوار، وعلى ظهر أحد الكراسي علّق أحدهم سترته..

أما قاعة المحكمة فتمتلئ بالعديد من الناس من مهن وطبقات مختلفة، منهم الجالس، ومنهم الواقف مستندًا إلى الحائط، ومنهم من يجلس على حواف النوافذ.

في الصف الأول من مقاعد المتفرجين نرى سوزان ومانيان وداريو..

وعلى يمين المسرح وتحت النوافذ يجلس جان على كرسي مديرًا ظهره للمحلفين كناية عن أنه لا يهتم بمحاكمته. وعلى حافة النافذة التي يجلس تحتها جان، يجلس عامل وقد تدلى حذاؤه حتى صار في مستوى عيني جان، ونرى نعل أحد الحذائين مثقوبًا.

تتركز أنظار جان على قدم العامل ثم تصعد إلى وجهه فيبادله العامل النظرات، بلا حقد.

وبين المنصة المنصوبة ومقاعد المتفرجين مكان خالٍ، يحده من ناحية المنصة أربعة من الثوار وقد جلسوا مسلحين. وفي الخلاء الموجود بين الاثنين يقف فرانسوا في الوسط يتكلم بحرارة إلى المحلفين ثم إلى الجمهور..

فرانسوا : علينا أن لا نعرف الرحمة. إنكم تعرفون هذا الرجل منذ خمسة عشر عامًا، وأنتم أنفسكم اشتركتم في الثورة الأولى وحاربتم، وحملتموه إلى السلطة منذ سبع سنوات. كنتم أيامها ترون فيه أنسب الناس لحكمكم، ولتحقيق الديمقراطية الاشتراكية التي كنا نريدها.. لكنه خان ثقتكم فيه، خان ثقتنا فيه، لذلك سنحاكمه اليوم وسنطلب إليه أن يسدد الدين ويوفي الحساب. وسوف أقوم أنا بتمثيل الاتهام الذي سنوجهه إليه.

يصفق الجمهور ويهتف، لكن فرانسوا يطلب الصمت بإشارة من يده، ويتجه إلى جان..

فرانسوا : اختر لك محاميًا.

لكن جان لا يجيب...

فرانسوا : هل تسمعني؟ قلت لك اختر لك محاميًا.

لا يكاد جان يلتفت إليه، ويهز كتفيه ثم يعود نظراته لتأمل قدمي العامل الشاب...

فرانسوا : إذن فسنعين نحن لك محاميًا.

لا يكاد جان يلتفت إليه، ويهز كتفيه ثم تعود نظراته لتأمل قدمي العامل الشاب...

فرانسوا : إذن فسنعين نحن لك محاميًا.

يتجه فرانسوا إلى الصالة كمن يبحث عن أحد، وتعثر نظراته على ماتير وزير العدل الذي يجلس في الصف الثاني من مقاعد المتفرجين محاولاً أن يتوه بينهم، لكن فرانسوا يمد يده إليه.

فرانسوا : أنت...

يقفز ماتير من كرسيه بقلق بالغ...

ماتير : لكني لا أصلح للدفاع عنه؛ كل أخطائه بشعة أراها بوضوح... لذلك لا أستطيع الدفاع عنه.

فرانسوا : (في صلف) لكنك محام، أليس كذلك؟ إذن

ستدافع عنه. هيا أقبل.

ينهض ماتير في حرج شديد ويقترب من المسرح ويفتح فمه محاولاً الاحتجاج من جديد، لكن فرانسوا يعود إلى أمره..

فرانسوا : هيا اقترب.

يمتثل ماتير ويقف في المكان الخالي بين المنضدة والمتفرجين..

ماتير : فليكن... إن موكلي مذنب.

يدير جان رأسه ويتطلع إلى ماتير، ويقول بصوت مفتعل..

جان : ها كم أقذركم جميعًا!

ماتير يضم شفتيه كالمرأة العجوز، ويدير له ظهره، ثم يقترب من فرانسوا ويوجه إليه وإلى المحلفين السؤال..

ماتير : وبماذا تتهمونه؟

فرانسوا : (صائحًا) ألا تعرف؟ (ثم يستدير إلى الجمهور) قولوا له بماذا نتهمه؟

الجمهور غاضب أشد الغضب، يكاد يفتك بجان. وتميز في صيحات الجماهير ثلاث كلمات...

البترول... المجرم... الطاغية.

ومن الصالة ينهض رجل ويقف على كرسي ويصرخ..

الرجل : وجّه الثورة لمصلحته، واستبدل زعماء الحزب برجال من أعوانه.

رجل آخر : لقد قضى على حرية الصحافة، واغتال لوسيان دريلتش.

فلاح : (من الصف الثاني ملوحًا بيدين محروقتين مشوهتين) لقد حرق قريتي.

فلاحة : ونفى زوجي.

تجتاح الصالة زمجرة قوية فيحاول فرانسوا تهدئة الجماهير بلا طائل وعندئذ ينهض عامل كان يجلس في الصف الأول، ويستدير إلى الصالة ويمد إلى الجماهير يديه صارخاً بقوة أسكتت الباقين..

العامل : كل هذا لا يهم. المهم أنه باع حقوق البترول للأجانب. هذه أكبر جرائمه!

ماتير : (محتجًا) غير صحيح! غير صحيح!

العامل : (إلى ماتير بغضب قاتل) تكذبني يا مغفل! (ويتوجه إليه، لكن أحد الثوار من الحراس

يمنعه. يشير ماتير بيديه مطالبًا أن يستمعوا إليه...)

ماتير : لم تبع شيئًا. الحكومة السابقة، حكومة الوصي، هي التي باعت الحقوق للأجانب.

العامل : (وما يزال الحارس يمسكه) ثم ماذا؟

ماتير : أعطى الوصي امتياز استغلال جميع ينابيع البترول عام ١٨٩٨م لشركة أجنبية لمدة مائة وعشرين سنة. ولما جئنا إلى الحكم كان الرأسماليون الأجانب يمتلكون بترولنا ويستغلون حقولنا منه منذ ثلاثين سنة.

العامل : (صارخًا) ثم ماذا أيها القذر؟ لماذا أقمنا سيدك على الحكم؟ لماذا نصبناه حاكما؟ هل انتخبناه رئيسنا ليتلهى؟ (ثم يستدير إلى الجماهير) ما هي ثروتنا الكبرى يا أولاد؟

وبصوت واحد تجيبه الصالة..

الجماهير : البترول!

العامل : وما هي الصناعة التي يستغلون فيها العمال أسوأ استغلال؟

الجماهير : البترول!

العامل : ومن الذي قام بالثورة الأولى؟ من الذي خاض الحرب ليوصل هذا الطاغية إلى الحكم؟ من الذي صنع من هذا الرجل زعيمًا؟

الجماهير : أصحاب البترول... أصحاب البترول...

العامل : (إلى جان) هل تسمع؟ وها هم أصحاب البترول قد قدموا اليوم يناقشونك الحساب. لماذا لم تؤمم صناعة البترول التي كان يجب أن تؤممها؟ لماذا ساعدت أسيادك الأجانب على إبطال الإضرابات وتفريق المضربين؟

يستدير العامل إلى الجماهير التي تطلق صيحات استهجان ويقول..

العامل : الموت هو ما يستحق. هو ومحاميه.

يتقدم فرانسوا نحو الجماهير رافع اليدين

صائحًا..

فرانسوا : سكوت. (صمت، ثم يوجه كلامه إلى العامل) أرجوك عد إلى مكانك. (يطيع العامل فيستدير فرانسوا المحامي) هل فهمت الآن بماذا نتهمه؟ هناك ثلاث تهم: الأولى: الاعتداء على الحريات الأساسية وخنقها واغتيال لوسيان دريلتش رئيس تحرير جريدة "الضياء". والثانية: اتباع سياسة تصنيع الزراعة، وهي سياسة لم نكن مستعدين لها وسابقة على أوانها، مما استتبع ثورة الفلاحين عليه، لكنه نفى الثائرين، وكان نفيه لهم بالجملة. والثالثة: أنه تآمر مع الأجنبي على سرقة بترولنا وإبقاء العمال أصحابه في حالة مزرية لا تطاق.

ماتير : وأين الشهود؟

فرانسوا : كل الناس هنا شهود. اختر من تشاء من بين

الموجودين بالصالة وسيشهد ضده.

ماتير : إذن أين شهود الدفاع؟

فرانسوا : عليك أن تجدهم بنفسك.

وطوال هذا المشهد يظل جان بلا حراك، مديرًا ظهره إلى المحلفين، مثبتًا أنظاره على حذائي العامل الشاب الجالس على حافة النافذة. ولكنه يرفع رأسه قليلاً عندما يقول فرانسوا..

فرانسوا : شاهدي الأول هو داريو. تعال يا داريو.

ينهض داريو، ويقف مواجهًا الجمهور. فرانسوا يتجه إليه ويستجوبه..

فرانسوا : قل لنا يا داريو: أين مكان صناعة البترول عندنا بين صناعته عالميًا؟

داريو : بلدنا هو البلد الثالث المنتج له، إذ تبلغ قيمة ما ننتجه عشرين مليون جنيه.

فرانسوا : متى وكيف اشترت الشركة الأجنبية امتياز استخراجه واستثماره عندنا؟

داريو : في عام ١٨٩٨م، ودفعت لذلك مبلغ خمسين مليون جنيه على دفعتين. لكن عندما وصل

جان آجيرا إلى الحكم كانت هذه الأموال قـد انتهت من زمن، أنفقها الوصي عن آخرهـا، ولم يستفد بلدنا من البترول شيئًا، فكل سـنة يضيع منا مبلغ عشرون مليون جنيـه مـن أرباح البترول التي تخصنا، وتـذهب إلـى جيوب الأجانب، بينما يتضور عمالنا جوعًا.

فرانسوا : (إلى الجماهير) إن أسـباب المجاعـة التـي نعانيها من ثلاث سنوات سببها نقص الإنتاج الزراعي وعدم كفايته، وعدم وجود ما يكفينا من عملات صعبة. (إلى داريو) قل لنـا يـا داريو: ما هي السياسة التي اتبعهـا آجيـرا لعلاج هذه الحال؟

داريو : حاول علاج تلك المشكلات باتبـاع سياسـة تصنيع الزراعة، وجعلهـا آليـة، وتـشغيل الجرارات، واستخدام الكيماويات في التسميد، وتعميم الاستثمار التعاوني، وفرض الضرائب

على المحاصيل. إلا أن الفلاحين عادوا هذه الإجراءات، فأرسلني آجيرا مع لوسيان دريلتش إلى القرى لنتبين أسباب ذلك، فحذرنا من...

شهادة داريو عن الفترة السابقة على الثورة بثلاث سنوات

مكتب جان آجيرا في القصر الحكومي...

جان يجلس إلى مكتبه يكتب. يدخل عليه خادمه الخاص يسبق داريو ولوسيان. يسير الاثنان دون أن يتكلما، ويقطعان الحجرة الطويلة، حتى يتوقفا أمام مكتب آجيرا الذي يضع قلمه من يده ويرفع رأسه...

جان : ماذا؟

لوسيان : هذا مستحيل. الفلاحون لم يستعدوا بعد لقبول هذه الإصلاحات.

(جان لا يهتز)..

داريو : قطعنا عشرة آلاف كيلومتر، وزرنا كل القرى، واستجوبنا مئات الناس. اسمع يا جان، إن فلاحينا أكثر فلاحي أوروبا تأخرًا ورجعية.

جان : وبعد؟

داريو : سيحطمون الجرارات، ويلقون بالسماد، ويحرقون المحاصيل، إن لم يشنقوا أيضًا مهندسينا الزراعيين. كي تعمم إصلاحاتك هذه يلزمك عشرين سنة تعلم فيها هؤلاء الناس أولاً، وتدعو فيها إلى مشاريعك.

جان : وأين تقريركما؟

يسرع داريو فيمد إليه يده بالملف الذي كان يضعه تحت إبطه، جان يضعه على المكتب دون أن ينظر فيه..

جان : أشكركما. سأفعل ما يجب في حدود الممكن.

داريو : (مستعطفًا) جان، لا تستمر؛ إنهم غير مستعدين. لا تستمر يا جان.

جان : لكني أعرفهم خيرًا منك؛ ولدت بينهم.

يحاول داريو مناقشته لكن جان يسكته بإشارة من يده.

جان : أشكرك.

يتردد داريو لحظة ثم يواجه عيني جان فيتراجع، ويتدخل لوسيان الذي لم يكن قد تحرك بعد..

لوسيان : أما أنا فسأبقى. عندي ما أحدثك به. لن تستطيع يا جان أن تصرفني من حجرتك

كأني خادم عندك. (إلى داريو) اذهب أنت يا داريو، وانتظر بالخارج.

صالة الانتظار..

يجلس داريو وراء باب المكتب، وتصل إليه أصداء أصوات المتناقشين بالداخل، فينهض ويتجه إلى النافذة ينظر منها مقطبًا إلى الشارع. لكن الأصوات الصادرة من المكتب تعنف، ثم فجأة يخرج لوسيان ويتجه إلى داريو..

لوسيان : هيا يا داريو. إنه طاغية لم يعد يستمع إلى كلام أحد.

غرفة المحكمة...

يتابع داريو الإدلاء بشهادته فيكرر كلام لوسيان...

داريو : وتم له الأمر وأصبح طاغية، ديكتاتور. لم يعد يستمع إلى أحد. نفذ مشروعه ووقع ما تنبأناه وثار الفلاحون في كل مكان، محطمين الدفعات الأولى من الجرارات، وتدخلت الشرطة ثم الجيش، ولم يتراجع آجيرا. وهكذا

صارت الإجراءات القمع سمات رهيبة كانت نتائجها أن دمرت خمس عشرة قرية تمامًا، وقبض على سبعة عشر ألفًا من الأهالي، وقتل مائة وسبعة وعشرين.

ترتفع همسات الجماهير أثناء هذا الكلام، وينهض فلاح من الصف الثاني محترق اليدين زاعقًا..

الفلاح : وأحرق قرية ماينيك التي ولد فيها. أنا أيضًا من قرية ماينيك، وعرفته منذ كان صبيًا، وأقول لكم إنه كان صبيًا شريرًا.

المحامي : أحتج..

الفلاح : (مقاطعًا) كان دائما متآمرًا، وكان يحب الزعامة، حتى قبل أن تقع له الحادثة التي كسرت فيها ذراعه. كانت هذه الحادثة سببًا في أن أحدًا لم يكن يدقق معه فيما كان يفعل، تركوه وشأنه، واستغل هو الحادث لمصلحته، وبسط نفوذه على الجميع، حتى لقبوه بالمسعور. وعندئذ أقسم أن ينتقم... (يتقدم

الفلاح إلى المحلفين مادًا يديه المشوهتين وكانت إحداهما تنقصها إصبعان): انظروا. نجح وانتصر.. وأي نصر! كنت في ماينيك عندما أشعل النار فيها.

تغضب الجماهير ولكن المحامي يزعق بكل قوته..

ماتير : أحتج! إنني أطلب من المحلفين رد هذا الشاهد. نحن هنا لنحاكم جان آجيرا على أعماله السياسية، فهل منكم من يجرؤ على التصريح بأن آجيرا قد أحرق خمس عشرة قرية ليرضي حقده الشخصي؟

سوزان : (ناهضة بعنف فجائي) ولم لا؟ هل تعلم من أي طينة هو؟ أنت لم تعرفه لأنك كنت من خدمه تزحف على وجهك أمامه.. (إلى المحلفين) أجل، كانت ذراعه سبب حقده. كان حقده ينبع منها. وكانت شقاءه وعاره. إنني أعرف ذلك وأعلمه. أعرفه لأني عرفت جان آجيرا، عرفته لأني كنت عشيقته، بقيت عشيقته عشر سنوات، أجل عشيقته! أو

بالأحرى مربيته!

شهادة سوزان عن فترة ما قبل سبع سنوات...

غرفة طعام سوزان وجان. حجرة صغيرة فقيرة عارية.

جان جالسًا إلى منضدة مغطاة بمشمع، صامتًا متجهمًا. سوزان واقفة إلى جواره تقطع له اللحم في طبق وتضعه أمامه، لكنه يظل صامتًا، ولا يشكرها، ثم يبدأ يتناول قطع اللحم بشوكته بيده اليسرى. تصب سوزان النبيذ في كأسه وكلها حنان وحب له، لكنه يظل صامتًا وعيناه لا تبرحان طبقه.

وفي وسط هذا المشهد نسمع صوت سوزان مخاطبًا المحلفين:

كان بحاجة إلى مربية، خادمة.. وذات يوم...

نعود إلى المشهد لنرى جان وسوزان يسيران في الشارع بعض المسير ثم يفترقان ليركض جان وراء الترام الذي بدأ يتحرك ويحاول أن يتعلق به وهو ماضٍ، ولكنه يفشل بسبب ذراعه الواحدة، ويسقط متدحرجًا على الأرض فتهرع إليه سوزان. لكن رجلين من المارة يسبقاها إليه، فيرد جان مساعدتهما بغضب..

جان : أرجوكما. لا شيء لا شيء. شكرًا.

وينهض جان وحده نافضًا الغبار الذي لطخ سترته بينما سوزان تتطلع إليه قلقة، ويبدو على الرجلين اللذين حاولا مساعدته القلق والدهشة بسبب لهجة جان في شكرهما، فيقول أحدهما للآخر متعمدًا أن يسمعه جان..

الرجل : الواحد لما يكون عاجزًا لا يجب أن يتعلق في الترام.

لكن جان يأخذ ذراع سوزان ويسحبها بعيدًا مكفهر الوجه..

غرفة المحكمة...

تتقدم سوزان من الحاجز أثناء سردها للرواية السابقة..

سوزان : كان يكره كل رجل بذراعين..

المحامي : محتمل، لكنا هنا لمحاكمة الأعمال لا لمحاكمة الرجل.

سوزان : أما أنا فأطالبكم أيها الرفاق بمحاكمة الرجل. لقد أراد أن يحكم ويسود ويسيطر لأنه عاجز، ولأنه كان عاجزًا كره الرجال وسفك دمهم.

المحامي : (ناهضًا ومحتجًا) إني أحتج وأصر أن تكون

المحاكمة لمحاكمة الأعمال لا لمحاكمة الرجل.

سوزان : (مصوبة إليه نظرات بالغة التهديد) حاذر على رأسك أيها المحامي.

يتراجع المحامي أمام نظراتها. ويسود الغرفة صمت مطبق..

فرانسوا : لكم أن تقرروا.

داريو : (ناهضًا – إلى المحلفين) أيها الرفاق : لا يمكن أن تحاكموه هكذا.

سوزان : أنت! تدافع عنه يا داريو؟

داريو : أنا لا أدافع عنه. لكنك لو استمريت بهذه الطريقة ستصبحين موضع سخرية وتندر، وتعطينه كل العذر. ثم إن المسألة ليست مسألة حكم قضائي يصدر ولكنها مسألة اغتيال.

مانيان : (في مقعده) كفى شجارًا يا داريو. الذي تحاكمونه رجل أحببناه ورفعناه إلى الحكم، لكنه كذب علينا وخاننا.

يتشاور المحلفون ويتناقشون بأصوات منخفضة وينهض بعضهم ليحادث البعض الآخر، ثم يعود الجميع إلى مقاعدهم، وحينئذ يسألهم فرانسوا..

فرانسوا : ماذا قررتم؟

تنهض إحدى المحلفات..

المحلفة : أن نحاكم الأعمال والرجل.

فرانسوا : إذن ستطول المحاكمة.

المحلفة : عندنا وقت.

وإذ تسمع فرانسوا ذلك تنظر إلى المحامي بانتصار ثم تلتفت إلى المحلفين..

سوزان : لقد فهمتم الموقف حقيقة. تريدون محاكمة الرجل على حياته كلها. ولما كان يجب أن نعرف كل ما نريد معرفته فعليكم أن تقرروا الساعة ما إذا كانت عمليات النفي والترحيل التي قام بها ضرورة كان لا بد أن يقوم بها أم أنها كانت جريمة. لكن قبل ذلك نريد الآن حالاً أن نعرف ما الذي كان يفعله عندما كان الجنود

يحرقون القرى وينهبونها؟

صوت من الجماهير: أنا أعرف.. أنا أعرف..

تلتفت سوزان فترى خادم جان آجيرا وقد نهض من كرسيه وسط الجماهير، واتجهت إليه كل الأنظار وهو يستطرد..

الخادم : كان يضحك، كان مخمورًا وكان يضحك.

سوزان : (ضاحكة باقتضاب) كنت واثقة من ذلك!

تعود سوزان لتجلس راضية، بينما يستدير فرانسوا إلى الخادم قائلاً..

فرانسوا : تقدم.

يتقدم الخادم ويقف بين فرانسوا وجان..

فرانسوا : ما اسمك؟

الخادم : كارل بومبياني. كنت خادم صاحب الفخا... جان آجيرا، وكنت قبلاً خادم كريفللي رئيس الوزراء. (يشير إلى جان) وعندما تسلم هذا الحكم جاء واحتل مسكن كريفللى فوجدني هناك واستبقاني...

شهادة الخادم عن فترة ما قبل تسع سنوات...

القصر الحكومي. صف طويل من الحجرات ذات الأبواب المفتوحة والنوافذ الزجاجية المكسورة. نرى جان في أول هذه الحجرات وهي ردهة مدخل القصر، في ثياب البورجوزاية.. ثياب العمال يوم الأحد، سترة سوداء ضيقة وسروال غـامق. ربطة عنقه بابيون. حذاء ضخم. قبعة قطيفة قديمـة القماش والطراز.

نراه وقد أحاط به بعض الأصدقاء، لكنه يصرفهم بإشـارة من يده، ويتجول بين حجر القصر المقفر حتى يـصل إلـى حجرة المكتب التي رأيناها من قبل، وكانت في ذلـك الوقـت مؤسسة بأثاث فخم. يقترب جان من منضدة مـلأى بـالتحف وأدوات الزينة ويتناول تمثالاً صغيرًا يفحصه برهـة ويعيـده برهبة، ويسير عدة خطوات متأملاً في غرابة ورهبة. تعثـر عيناه على صورة امرأة بالغة الأناقة. عينا المرأة كما لو كانتا تنظر إليه، يدير إليها جان ظهره ويسير، لكنه يتلفت من جديد ويثبت أنظاره عليها..

نلمح من فتحة الباب الخادم طويلاً جامد الحركة يرقب جان بلا أدنى تعبير.

جان يستند بمؤخرته إلى منضدة صغيرة عليها سجائر، لكنه يعتدل وينظر من جديد إلى صورة المرأة. ثم إلى صورة جنرال عجوز معلقة إلى جوارها فيخلع آليًا قبعته ويمسكها بيده، لكنه يتنبه إلى ما فعل فيغضب لما أتى، ويقذف بالقبعة إلى المكتب فتنقلب المحبرة وتغرق المنضدة حبرًا فيجرى جان إليها، لكن الخادم يسبقه وقد أمسك بممسحة وأخذ يمسح الحبر المراق. جان يذعر عندما يراه ويتأمله سائلاً..

جان : ماذا تصنع هنا؟

الخادم : كنت خادم صاحب... أقصد رئيس الوزراء السابق.

صمت لبرهة يرقب خلالها جان الخادم وهو يمسح الحبر بحركات دقيقة تدل على مهارة في الصنعة ثم يقول له:

سأبقيك معي.. (يشير بيده إلى اللوحتين) ارفعهما..

غرفة المحكمة...

يتابع الخادم الإدلاء بشهادته مواجهًا المحلفين..

الخادم : لم أكن أفارقه للحظة، ولكنه رغم ذلك ما كان

يحس بوجودي.

كان يراني قطعة من الأثاث. وظللت سبع سنوات الأزمـــة كظله، وكنت ألبسه ثيابه..

شهادة الخادم من فترة ما قبل عدة سنوات...

غرفة جان في القصر. نرى جان بالقميص ونـــرى يـــدين ممتدتين إليه بصديرية فيدخل فيها.

ثم نراه من جديد بالقميص، ونرى اليـــدين تمتـــدان إليـــه بالسترة الرسمية.

ثم نراه من جديد بالقميص، ونرى اليـــدين تمتـــدان إليـــه بالوشاح الرسمي.

ثم نراه بالقميص من جديد، ونرى اليـــدين تمتـــدان إليـــه بالسترة العسكرية المليئة بالأوسمة.

ومع هذه المشاهد المتكررة المتوالية نسمع صوت الخـــادم معلقًا:

سبع سنوات لم أفارقه فيها. كان في أول الأمـــر

يشرب فنجانين من القهوة في الساعة...

نرى جان جالسًا إلى مكتبه منهمكًا في الكتابـــة ونـــسمعه

يقول دون أن يرفع رأسه:

قهوة!

يختفي الخادم من خلفه، ونرى إبريق القهوة يرتفع إلى الفضاء وحده، ويسكب القهوة في فنجان جاء وحده أمام جان الذي يقول بعدم اكتراث:

شكرًا!

وبينما نرى جان يشرب قهوته نسمع صوت الخادم معلقًا:

ولكنه في السنتين الماضيتين لم يعد يطلب القهوة... بدأ يطلب...

جان : ويسكي!

نرى جان جالسًا إلى مكتبه ووجهه أكثر تجهمًا ويده أكثر ترددًا. ونرى وراءه زجاجة ويسكي ممتلئة. ونرى كأسًا يذهب وآخر يجيء أمام جان الذي يفرغ كل كأس بجرعة واحدة. ونسمع صوت الخادم معلقًا:

لم يعد حتى يشكرني "فلم أكن موجودًا بالنسبة إليه" ولكنه مرة واحدة فقط بدا كما لو كان يراني..

نرى جان مكبًا على دراسة ملف، وهو يتناول طعامه على مكتبه. يتوقف فجأة عن العمل ويدفع طبقه ويتوه بنظراته في الغرفة كما لو كان يبحث عن فكرة ما. لكنـــه يـــرى الطبــق الموضوع عن يساره في اللحظة التي يرتفع فيها الطبق الآخر في الهواء كما لو كان قد أمسكت به يد لا ترى... وإذ ينظــر جان يبين الخادم فجأة وهو يسحب الطبق ليأخذه. وإزاء نظرات جان يرتبك الخادم فنسمع جان يقول له بلهجة حالمة مندهشة:

ها أنت ذا! لم أكن أراك، لكن ها أنت ذا... لكن قل لي، لماذا اخترت من دون كــل المهــن أن تكون خادمًا؟ هذه أحط مهنة..

ولكن جان كان كمن يخاطب نفسه، إذ ما يكاد يتم كلامــه حتى يكون قد أدار رأسه واستغرق في التفكير وهــو يقلــب الملف الموضوع أمامه، ونرى الخادم والطبق في يده يتطلــع إليه بكراهية. لكن جان يصيح فجأة دون أن يرفع رأسه:

ويسكي!

يختفي الخادم في الحال ونرى الطبق ينتقل تلقائيًا من نفسه إلى صينية قرب زجاجة الويسكي. ونــرى الزجاجــة تمــلأ بنفسها كأسًا يرتفع من نفسه ويحط على مكتب جان...

غرفة المحكمة...

يواجه الخادم المحلفين ويواصل أداء شـــهادته ويتلــصص نظره إلى ظهر جان الذي ما يزال يدير ظهره للمحلفين..

الخادم : لكنه لم يكتف بالخمور وحدها... كانت هنـاك النساء أيضًا.. امرأة كل يوم.. تقريبًا..

يشير فرانسوا إشارة اشمئزاز إلى الخادم طالبًا إسكاته...

فرانسوا : لا أستطيع أن أصدق!

إلا أن ضحك الصالة يغطي على كلامه، وقبل أن ينتهـي من كلامه تنهض إحدى المحلفات وتسأل..

المرأة : امرأة كل يوم؟ كيف كان يحصل عليهن؟

المحامي : (بحدة) وما شأننا بذلك؟

المرأة : دع الشاهد يتكلم!

ويهز فرانسوا كتفيه استخفافًا ويشير إلى الخـادم ليكمـل شهادته فنسمعه يقول..

الخادم : كان يتلقى من مائة إلى مائة وخمسين رسـالة غرام في الأسبوع، فكان يستدعي صـاحباتها إلى مخدعه حسب ترتيب ورود الرسائل إليه،

كل بدورها...

شهادة الخادم عن فترة لعدة سنوات...

يقدم هذا الجزء من الشهادة بسرعة واقتضاب كما لو كان يقدم شريطًا إخباريًا...

مكتب صغير في القصر...

نرى موظفًا يجلس إلى منضدة تكومت عليها الرسائل وهو يفتحها بفتاحة ويتطلع إلى التوقيع ثم ينقل الاسم في دفتر، ويضع الرسائل في دولاب له منافذ كصندوق البريد. ونسمع صوت الخادم معلقًا:

وبعد ذلك تقوم الشرطة بالتحري عن جمال

وحالة كل واحدة من صاحبات الرسائل..

شارع...

نرى امرأة تخرج من شارع يتبعها شرطي في ملابس مدنية. تدخل المرأة أحد المحلات العامة فيرابط الشرطي أمام الواجهة ويكتب شيئًا ما في فترة، ونرى صفحة الدفتر مكتوب عليه

بخط كبير "رينيه كاراس" وتحت الاسم العبارات التالية التي ترك أمامها خاليًا حتى يملأه فيما بعد...

آراؤها السياسية...

علاقاتها الشخصية...

طبائعها...

ونسمع صوت الخادم معلقًا:

وبعد ذلك تعرض عليه صور النساء...

غرفة مكتب جان...

نرى جان جالسًا إلى المكتب، والخادم خلفه يقدم له ثلاث صور للمرأة السابقة. الصورة الأولى لها بثوب السهرة، والثانية بثوب عادي، والثالثة بمايوه بحر. يتطلع جان إلى الصور كمن شبع من كل هذا، ثم يشير إشارة غامضة، ونسمع صوت الخادم معلقًا:

وإذ نالت المرأة رضاه أحيلت إلى الكشف الطبي..

عيادة طبيب...

نرى طبيبًا بقميص أبيض يعاين المرأة التي شاهدنا صورها ونسمع صوت الخادم معلقًا:

وأخيرًا تحصل على موعدها معه...

غرفة مكتب جان...

نرى جان جالسًا إلى المكتب. وفي هذه المرة نرى مكتبًا أصغر إلى يمينه وقد جلست إليه إيلين تضرب على الآلة الكاتبة بينما يدخل الخادم إلى المكتب، وينحني أمام جان الغارق في عمله، ويضع أمامه كارتًا فيتطلع جان إلى الاسم "رينيه كاراس" وينهض ويلقي بنظرة مستخفة إلى إيلين التي يبدو عليها الاشمئزاز والغضب، ويخرج جان من المكتب، ويدخل حجرة صغيرة مؤثثة لهذا الغرض بسرير عريض ومقعدين وثيرين ومائدة. يفتح الخادم الباب الثاني للحجرة فتدخل رينيه كاراس خجولة مثيرة. يغلق الخادم الباب ثم ينظر إلى الساعة التي تشير إلى الخامسة، وبعد لحظة نرى الساعة تشير إلى الخامسة والنصف والخمس دقائق. يستدير الخادم الذي كان يقف أمام النافذة، ويتجه بنظره إلى الباب الذي

سمعه يفتح. يظهر جان بكامل ملابسه وقد تشعث شعره قليلاً فيقترب منه الخادم ويخرج مشطاً من جيبه يمر به على رأس جان دون أن ينبس بحرف.

يدخل جان حجرة مكتبه فيتطلع إلى إيلين بنظرة فيها خوف وقلق ثم يستغرق في عمله..

قاعة المحكمة...

يتابع الخادم الإدلاء بشهادته...

الخادم : خمس نساء كل أسبوع، ولكل منهن نصف ساعة..

المحامي : (غاضبًا) إن المحكمة تضيع هيبتها باستماعها إلى ثرثرة خادم.. إنني أحتج على ذلك.

سوزان : (مقاطعة) على المحكمة أن تتعرف على الشخص المائل أمامها.

الخادم : وأعرف حكايات أخرى عنه..

فرانسوا : (مقاطعًا) فيما بعد، لكن أخبرنا الآن عن

شعوره عندما كنت تعلن إليــه نبــأ القــرى
الثائرة؟

نسمع ضحكة عالية يطلقها جان عندما يرد الخادم عن السؤال قائلاً:

قلت لكم إنه كان عند شولشر ملك البتــرول
الأجنبي الذي استولى على أموالنا، والــذي
يستغل عمالنا. وكان مدعوًا عنده إلى حفلــة
ماجنة. وقدم أحد الضباط يخبره أن أوامــره
قد نفذت فلم يعلق بشيء، ولكنه بعــد عــشر
دقائق ضحك كالمجانين...

شهادة الخادم عن فترة ما قبل ثلاث سنوات...

غرفة الاستقبال عند شولشر مدير شركة البترول الأجنبيــة التي تستغل الثروة البترولية في البلد. شولشر رجــل ضــخم قوي جدًا ذو ملامح قاسية. يجلس جان إلى المائدة الكبيرة أمام شولشر وحولهما عشرون رجلاً وامــرأة. والمائــدة حافلــة بالكؤوس الفضية والبللورية وزجاجيات الخمر والــصحاف. والجميع يضحكون مخمــورين، والنــساء نــصف عاريــات

والغرفة كلها قد سادها جو ماجن، ونسمع في صخب الضحك صوت انفجارين.

قاعة المحكمة...

يظهر الخادم واقفًا أمام المحلفين وقد ظهر عليه الاضطراب الشديد وهو يصغي السمع، ونسمع صوت انفجارات جديدة تقترب من المحكمة فيسأل الخادم:

ما هذا؟

ويقفز بعض الحاضرين إلى النوافذ يتطلعون منها. ونسمع صوت الانفجارات والقنابل والرصاص. ويفتح باب الغرفة ويدخل ثائران مسلحان يعلن أحدهما..

الثائر : هذه كتيبة كروب..

فرانسوا : وماذا عنها؟

الثائر : نجحت في هجومها وهي تحتل الآن ساحة الشعب والمواقع الغريبة، وستهاجم القصر على ما يبدو..

فرانسوا : ألا يزال لورنتر وشارتان في مراكزهما؟

الثائر : أجل...

فرانسوا : حسن، يمكنكما الذهاب...

وينصرف الثائران، وينظر المحلفون متعبين إلى فرانسوا بقلق. بينما يظل جان هادئًا في جلسته..

فرانسوا : لنكمل المحاكمة.

كان المحامي قد اقترب من الخادم فيستدير إلى فرانسوا ويقول:

أريد استجواب الشاهد؟

فرانسوا : ها هو .. استجوبه.

ويعود المحامي إلى الخادم يحملق فيه، وتستمر المعركة وضجتها تزداد، حتى ليبدو أن القتال يدور تحت النوافذ، فيشتد اصفرار وجه الخادم..

المحامي : إنك خائف! تعلم مصيرك لو انتصرت جماعتنا إذا ما كانت شهادتك ملفقة. هل تزال مصرًا عليها؟

الخادم : أنا... أنا...

المحامي : هل أنت مصر على أقوالك؟ (صمت) حسن،

لنتابع القضية. كان جان آجيرا يضحك، هيه؟

يزداد الرصاص قربًا، فينظر الخادم إلى النافذة ثـم إلـى المحلفين ويقول بصوت متردد:

الخادم : أعني ... أعني ...

ينحني المحامي وقد كتم انتصاره على الخـادم المنـزعج قائلاً:

هل تسخر من المحكمة؟ ما هذا الذي قلتـه... ضحك ظهر أنه ليس ضحكًا، ومأدبة ماجنـة ثم ليست ماجنة! حدثنا عما جرى من الأول، وقل لنا صراحة أي يوم كان هذا؟

شهادة الخادم عن فترة ما قبل ثلاث سنوات...

شارع، تمر سيارة طويلة بيضاء تطلق صفارتها مدويـة، وتقطع الشارع بسرعة خارقة تتبعها من خلف ومن أمام ثلاث سيارات أخرى، وبعض الجنود من راكبـي الموتوسـيكلات. ونرى في السيارة الضخمة البيضاء داريو وجـان جالـسين متجاورين. بينما جلس الخادم خلفهما. ونسمع داريو يقول:

رفض شولشر زيادة الأجور وأحس أن العمال سيضربون..

جان : (في غموض) آه إذن لهذا..

داريو : هيه؟

جان : لهذا أقام المأدبة. وهكذا أعرف مقدمًا ما سيطلبه مني شولشر.

معامل بترول شولشر..

تقف السيارة البيضاء أمام بوابة المعامل، ونرى جمهورًا صغيرًا يحتجزه عدد كبير من رجال الشرطة خلف الحواجز. ينزل جان وداريو من السيارة ويتبعهما الخادم، وتهتف الجماهير بلا حماس:

- يحيا آجيرا! يحيا آجيرا!

ويبدو واضحًا أن الهتاف صادر عن جماعة من المأجورين، لأن بقية الجماهير لم تعد تنفعل به ولا ترد ده. وعندما يسمع جان الهتاف المفتعل يهز كتفيه ويقول لداريو..

جان : مسألة سخيفة. أبلغ مانيان أني أفضل السكوت

على الهتاف المفتعل.

يدخل جان وداريو يتبعهما الخادم إلــى ســاحة المعامــل، فينزل شولشر درج المبنى المركزي المواجه للمدخل العمومي ويسرع إلى ملاقاتهما، ويكتسي وجهه الصارم بابتسامة، ولكنا نرى ما يجري وراء هذه الابتسامة من كراهية وحقد...

وفي نفس الوقت يتجمع العمال في صف طويل أقام البوابــة حتى السلم، يرقبون جان بوجوه كالحة صامتة، وقد ثقل الجــو بروح العداء، وعندما يصل شولشر إلى قرب جان ينحني قائلاً:

يسرني أن أستقبلك هنا، يا صاحب الفخامة أنــا ومعاوني..

يهز جان يد شولشر محييًا ثم يتوجه الجميع إلــى المبنــى المركزي، ويصعدون السلم بينما تنطلق صيحة فرديــة مــن الجمهور:

- آجيرا أيها الخائن! آجيرا الخائن المرتشي!

يتوقف جان ولكنه لا يلتفت، بينما يبتسم له شولشر..

شولشر : أرأيت يا صاحب الفخامة! إنهم لا يحبون أحدًا، لا أنت ولا أنا، سأرى ما...

جان : (مقاطعًا بإشارة من يده، بينما يستأنف الصعود دعهم.

لا أهمية لذلك.

ومن جديد يتصاعد الهتاف:

- الموت لآجيرا المرتشي!

فيهز جان كتفيه دون أن يتوقف ويدخل المبنى..

المعامل من الداخل...

نشاهد مجموعة من الشخصيات الرسمية والمهندسين يتفقدون أحد الأقسام في نهاية جولتهم. وعلى بعد منهم نرى جان وشولشر وقد انفصلا عن الباقين يتناقشان..

شولشر : لقد لمست حالتهم النفسية، وسوف يضربون خلال ثمانية أيام، إلا أني لن أعطيهم الزيادة التي يطلبونها، لأن هذه الزيادة هي مجرد تعلة. إنما الإضراب هو ما يطلبونه حقيقة، لأنهم يريدون بالإضراب خلق حالة ثورية تهدف إلى نزع ملكية العامل...

لكن جان لا يبدو عليه أنه قد تأثر، فيستطرد شولشر دون

أن يرفع عينيه عنه..

شولشر : إنني أطلب إليك أن تزيدني تأكيدًا أنك لن تبغي الامتياز مهما حدث...

جان : لن أحاول شيئًا من هذا. ثق من ذلك.

شولشر : وإذا اشتد الإضراب وعنف هل أستطيع أن أطلب إليك تأييدي بالقوة المسلحة؟

جان : كلا، إنما أستطيع أن أكون حكمًا في النزاع.

شولشر : لكن ربما تسير الأمور إلى أبعد مما تتصور، فاحذر.

جان : لو ناصرتك بالقوة المسلحة ضد المضربين فكأني أقطع ما بيني وبين عمال البلاد، وسأنتهي أنا وأنت بعدها في سنتين أو ثلاث.

شولشر : (مهددًا) أهذه كلمتك الأخيرة؟

جان : أجل.

شولشر : يا صاحب الفخامة، بلادكم صغيرة جدًا، وبلادي كبيرة جدًا...

وفجأة يبتسم ويقول:

هيا نتناول طعام الغداء..

قاعة المحكمة...

نرى المحامي يحاول تهديد الخادم..

المحامي : لا تحاول تغيير الموضوع. لقد سألتك إذا كان آجيرا قد ضحك عندما أعلنوه بخبر قمع ثورة الفلاحين؟

الخادم : سأصل إلى هذه النقطة..

شهادة الخادم عن فترة ما قبل ثلاث سنوات...

قاعة الاستقبال عند شولشر، نفس القاعة السابقة، لكننا لا نرى إلا عددًا أقل من المدعوين هذه المرة، وهم خليط من الموظفين والمهندسين، والجو ثقيل، وجان يأكل دون أن يتكلم..

يدخل أحد الضباط ويتجه إلى جان وينحني عليه ويتحدثان هامسين، بينما يتحادث الباقون وأعينهم شاخصة إلى الاثنين..

جان : وإذن؟

الضابط : انتهى الأمر.

جان : هل كان صعبًا؟

الضابط : قاوموا فاضطرونا إلى...

جان : (مقاطعًا بنفاد صبر) أكان صعبًا جدًا؟

الضابط : دمرت عشر قرى واعتقلت سبعة عشر ألف رجل.

جان : هيه.. سأراك بعد لحظة.

ينسحب الضابط، ويظل جان جامدًا لكنه يكف عن الأكل ويطيل النظر إلى الحائط المواجه من فوق رأس شولشر الذي يستمر في النظر إليه..

ونرى على الحائط مجموعة مثبتة من الأسلحة الأثرية منها بندقية ضخمة..

شولشر : هل تحب الأسلحة الأثرية يا صاحب الفخامة؟ عندي منها مجموعة جميلة.

ينهض شولشر ويتجه إلى الجدار ويحاول انتزاع البندقية ويفلح بعد جهد ويمسكها بيديه. ويغمز لأحد المهندسين فترتسم على وجهه ظل ابتسامة بينما يقول لجان:

أترى العاج المطعم به البندقية على كعبها؟

ويمد يده بالبندقية لجان الذي يمد يده اليسرى ليتناولها فيقول له شولشر متعمدًا:

بيديك الاثنتين يا صاحب الفخامة. إنها ثقيلة جدًا..

إلا أنه يستدرك فيقول بسرعة:

أوه معذرة. أمسكها أنت إذن يا سيد داريو.

بينما يغضب جان فيقول:

لا تمسك شيئًا يا داريو. (ثم يمد يده إلى شولشر) ناولني البندقية! (ويتناولها بيد واحدة بمجهود رهيب ويتفحصها) الحق معك. إنها جميلة! (ويناولها لشولشر من فوق المائدة) لكنها أقل ثقلاً مما قلت. يد واحدة تكفي، أجل يد واحدة.

يمد شولشر يدًا واحدة ليأخذ البندقية لكنه لا يقدر وتسقط منه على المائدة وتكسر الأطباق والكئوس والزجاجات، بينما يتكهرب الجو ويصمت الجميع في دهشة وحرج، لكن جان

يميل بكرسيه إلى الخلف ويضحك ضحكة عصبية ويظل يضحك.. وفي نفس اللحظة نسمع طلقات الرشاشات وقد تباعدت، وصوت الخادم يقول:

- لهذا كان يضحك..

غرفة المحكمة...

تتوقف المحاكمة للحظة، لكن يبدو على الجميع أنهم كانوا يسمعون ضجيج المعركة الذي أخذ يتباعد إلى أن تلاشى، ثم نسمع من جديد صوت رصاصة وبعدها يسود الصمت التام، ثم يفتح الباب فجأة ويطل الثائر الذي كان قد جاء أولاً..

الثائر : إنهم يتراجعون نحو القلعة ونحن نطاردهم!

تعلو الهمهمة ويطلب فرانسوا الصمت بإشارة من يده ويقول:

لتستمر..

المحامي : (وقد ذعر وأخذ يهز رأسه متطلعًا إلى من حوله) ما عاد في وسعي الاستمرار؛ ما عدت أستطيع الدفاع عن رجل لا يتكلم لكنه يسخر من محاميه؛ اسمحوا لي أن أنسحب. إنه يهزأ

بي وأنا أعرض نفسي للخطر من أجله. إنني معكم، مع الثورة، أجل معكم ضده.

فرانسوا : بل ستدافع عنه. ستدافع عنهِ وستأخذ أجرك.

داريو : (ناهضًا فجأة وقد صارع نفسه طويلاً لكنه ما عاد يطيق) الحق معه. هذه محاكمة بشعة. أنتم لا تحاكمونه. أنتم تغتالونه.

الجمهور يشهق عجبًا، بينما تنهض امرأة من المحلفين قائلة بعنف:

أهو ذنبنا أنه لا يريد الدفاع عن نفسه؟!

داريو : لكنه عار! ثم إننا لم نقاتل كي نستمع إلى خادم يثرثر. إن القضايا التي نناقشها خطيرة جدًا، فعلينا أن نرتفع لمستواها. علينا أن نقرر هل كان من الواجب تصنيع الزراعة في الوقت الذي حدده آجيرا، وعلينا أن نقرر هل كان في وسعه نزع ملكية شولشر وتأميم البترول، لا يمكن أن نستمر في مناقشة ذراعه

المكسورة وعقدة النقص المركّبة فيه من جرائها، ولا يمكن أن يستمر هو معتصمًا بالصمت لا يريد أن يتكلم.

يصمت الجميع، حتى المحلفون، فقد صعق داريو الجميع. ووسط هذا الصمت يتجه داريو إلى جان الذي ما يزال مديرًا لهم ظهره، ويخاطبه من خلف ظهره..

داريو : جان! إني أضرع إليك، دافع عن نفسك لمصلحتك، دافع عن ذكراك. لا تدعهم يرمونك بالرصاص كالكلب الضال. جان! لا تظن أني أكرهك. إني ما أزال أقدرك ولقد أحببتك.. لم أثر ضدك، لكنني ثرت ضد أفعالك وسياستك. كلمهم إذن. قل لهم كلمة. إني لأتوارى خجلاً نيابة عنهم وعنك، وعن نفسي.

جان : (وقد أدار إليه رأسه عندما انتهى من كلامه ويقول بحدة) لن أتكلم لأن غاية سعادتكم هو

أن أتكلم.

ثم يدير لهم ظهره من جديد، بينما القاعة قد انقسم الجمهور فيها قسمين، قسم يؤيده وقسم يلعنه، ومن جديد انطلقت الشتائم...

- قذر!
- اشنقوه فورًا!
- داريو محق!
- لا يمكن أن نقتل رجلاً لم يدافع عن نفسه!
- إنك تفسد محاكمتك!

فرانسوا : (يقترب من داريو ويحاول إعادة النظام بيديه) داريو. ربما وجدنا الحل... (ويهمس في أذن داريو بشيء يوافقه داريو عليه بهزة من رأسه).

داريو : حسن، سأذهب.

يخرج داريو من القاعة، بينما يستدير فرانسوا إلى الجماهير الصاخبة ويهتف:

سكوت!

ويعود الصمت من جديد فيهتف مناديًا:

مانكو!

ينهض من الصف الأول رجل أصلع في الستين من عمره، يضع نظارة قد انحدرت على أنفه، ويبدو عليه أنه من أصحاب العلم البسطاء، ونذكر أنه أحد الكبار الذين رأيناهم من قبل في غرفة الانتظار. ينهض مانكو وقد تأبط ملفات ضخمة، واتجه إلى فرانسوا..

فرانسوا : إنك مهندس زراعي كما نعلم، وقد أمضيت سنتين في وزارة الزراعة، وظللت تحتج دائمًا على تصنيع الزراعة الذي أقره آجيرا..

مانكو : (مشيرًا إلى الملفات) كان التصنيع حماقة وجريمة، وها هو الدليل..

فرانسو : تكلم فنحن نستمع إليك..

فيتلفت مانكو حوله متعبًا باحثًا عن مكان يضع فيه ملفاته.. ويشير فرانسوا إلى أحد رجال الحرس فيسرع ويضع منضدة صغيرة أمام مانكو يضع عليها ملفاته ويبسطها ويبدأ مرافعته بصوت رتيب..

مانكو : بلادنا تنتج سنويًا..

في شوارع المدينة...

يخرج داريو من القصر إلى الطريق يسير بسرعة، ونسمع أصوات طلقات الرصاص الرشاش، فيلتصق داريو بجدار ويرفع رأسه ويبدو عليه أنه قد رأى النار تطلق من فوق الأسطح، فيستأنف سيره مسرعًا في الشوارع التي يعقبها جو الثورة، ويتوقف أمام بيت واضح الفقر ويدق الجرس مرة ومرتين وأربع مرات، لكن أحدًا لا يرد، فيعبر الطريق إلى الرصيف المقابل وينادي..

- إيلين! إيلين!

ونلمح في الطابق الأول ستارًا يهتز..

- افتحي أنا داريو!

وينتظر لحظة في صمت، فيفتح الباب، ويعبر داريو الطريق إليه ويدخل بسرعة. تدخله امرأة عجوز لا تكلمه ثم تقفل الباب وتصعد السلم وداريو خلفها..

شقة إيلين...

تُدخل العجوز داريو إلى غرفة بادية الفقر الشديد، تستخدم غرفة طعام وجلوس، وتشير إلى داريو كي يجلس..

- إنها مريضة فانتظر.

وتخرج العجوز، ويبقى داريو واقفًا ثم يتجول ببطء في الغرفة يتأمل صورها الفوتوغرافية. ونتأملها معه. إنها صور لوسيان دريلتش منتشرة على الجدران، وفوق قطع الأثاث في أوضاع شتى، منها صور للوسيان وقد احتضنته إيلين، وصور له وحده، وصور له وهو يتزحلق وصور وسط التلاميذ. وعلى منضدة واطئة نلمح صورة شبه مخبأة لإيلين بين لوسيان وجان وقد أمسك كل منهما بإحدى يديها ضاحكا. يتناول داريو الإطار ويتطلع إلى الصورة بوجه مكفهر، فتدخل إيلين بثياب الحداد، وعندئذ يعيد داريو الصورة إلى مكانها بسرعة ويتلفت إليها فتسأله:

ما الجديد؟ سيحكم بالإعدام .. هيه؟

فيهز داريو كتفيه بأسى مؤمنًا..

إيلين : وكيف حاله؟

داريو : يرفض الدفاع عن نفسه.

إيلين : (متماسكة تريد أن تحول موضوع الحديث) وكم بلغ عدد القتلى؟

داريو : لم نعرف بعد..

يتطلع داريو إلى إيلين التي تتلفت بعيدًا وتذهب إلى النافذة، لكنه يلحق بها ويمسك بيدها ويعود بها غصبًا قائلاً...

داريو : إيلين! إن هذه المحاكمة مهزلة، لأننا لا نحاكمه ولكننا ندينه. ستجعلنا هزئة الناس وسنخجل من أنفسنا بسببها.

إيلين : كان أحسن له لو كان قد قتل أثناء المعركة هذا الصباح.

داريو : أجل. (مستحييًا بعد تردد) لو أنه يدافع عن نفسه!

إيلين : وماذا لو فعل؟

داريو : سيتغير كل شيء. ستتحول المحاكمة إلى مناقشة السياسة التي طبقها.

تحرر إيلين يديها من يديه وتتجه إلى النافذة وتفتحها فترى منها جثة ثائر ممدة في نهاية الشارع. تراها إيلين فتقول هامسة كالمخاطبة نفسها:

ألم يكف كل هؤلاء القتلى حتى يقتلوه أيضًا؟

يقترب داريو منها..

داريو : ساعدينا يا إيلين!

إيلين : في أي شيء؟ ماذا أستطيع أن أفعل؟

يتطلع داريو وإيلين إلى الشارع فيريا ثلاثة ثوار مسلحين مسرعين، ومن بعيد نسمع طلقات الرصاص، ويستأنف داريو كلامه بحزم أكثر:

ما من أحد يعرفه قدر معرفتك له، وأنت الإنسان الوحيد الذي أحبه في هذه الدنيا، فلو جئت تشهدين..

يمر المسلحون الثلاثة مرة أخرى ممسكين بأسير يسير بصعوبة، يجبرونه على التقدم وهم يركلونه وينخزونه بكعاب بنادقهم. تتراجع إيلين وتغلق النافذة بشدة..

داريو : لو قدمت تشهدين فسيدافع عن نفسه أمامك.

أجل، سيدافع عن نفسه، أنا واثق..

تتردد من الشارع النداءات وأصوات الرصاص..

إيلين : لن أذهب!

داريو : إيلين...

إيلين : لا أستطيع يا داريو، افهمني! قتل زوجي وإني لأكرهه ولا أستطيع الدفاع عنه. لكنه مع ذلك ظل أقرب أصدقائنا مدة عشر سنوات، كان لنا فيها الشقيق فلا أستطيع أن أتهمه.

داريو : نحن لا نطلب منـــك أن تتهميـــه. يكفـــي أن تحضري وأن تروي ما رأيتيه لتجعليه يـــدافع عن نفسه وعن أسباب قتله لوسيان...

إيلين : وهل ينجو لو شهدت؟

لكن داريو لا يجيب...

إيلين : أرأيت يا داريو! لن ينجو، ولا أريد أن أتدخل. اغتالوه وحدكم. لا أريد أن أتدخل...

داريو : نغتاله؟

إيلين : لم أعد أدري ما هو القتل، ومن هم القتلة. لقد قتل لوسيان، وها أنتم تفعلون مثله وتقتلونه..

تعود إيلين إلى النافذة وتتطلع إلى الجثة بالشارع ثم تقول دون أن تلتفت إليه:

امش. ابتعد عني. سيكون لي قتيلان أبكيهما.

داريو : إذن فأنت ترفضين؟

إيلين : أجل أرفض، فاتركني وشأني..

غرفة المحكمة..

يواصل مانكو شهادته المدعمة بالأرقام المحشوة بالتعابير الفنية المليئة بأسماء القرى، وفرانسوا يصغي إليه وكذلك بعض المحلفين، بينما الجماهير قد انقسمت على نفسها، فبعضهم نائم على مقاعده، وبعضهم قد افترشوا الأرض وناموا ممدين، والبعض يتحدث بصوت منخفض، ومانكو يواصل شهادته دون أن يتعب أو يمل..

يتثاءب جان ويلتفت إلى اثنين من الحرس قد بدا عليهما التعب الواضح فافترشا الأرض ووضعا بندقيتهما بين سيقانهما..

جان : لم أعد أطيق؟

ويتطلع إليه الرجلان دون أي تعبير ولا يجيبا عليه، فيخرج جان من جيبه صندوقًا من التبغ ويلف سيجارة واحدة مخاطبًا الحارسين..

جان : ها أنتما تريان أني لست عاجزًا!

يستمر الرجلان صامتين في عداء فيهز جان كتفيه..

جان : لا عليكما. لم أقصد أن أرشوكما، أنتما من عمال البترول؟

أحدهما : أجل!

جان : أتعملان في المضخات أم في التكرير؟

الرجل : التكرير.

جان : أتعتقدان أني خائن؟

الرجل : أجل!

يشير جان بإبهامه إلى ما وراء ظهره. إلى المحلفين والمحامي وفرانسوا والشهود..

جان : وما رأيكما في المحاكمة؟

الرجل : لم يكن لها داع. كان يجب ضربك بالرصاص

فورًا!

جان : أنا معك، لكن فرانسوا مدقق ومصمم أكثر مما يجب.

يفتش جان جيوبه وهو يتكلم باحثًا عن علبة الثقاب، ولكن لا يجدها فيسأل الحارسين..

جان : هل لديكما كبريت؟

لكنهما لا يردان فيرفع السيجارة من فمه، ولكن في هذه اللحظة تسقط عليه علبة ثقاب فيرفع عينيه ويرى العامل الشاب الجالس على النافذة..

جان : لماذا لا ترقع نعليك؟

لكن الشاب يصمت..

جان : (ملحًا) هل يكلفك ذلك كثيرًا؟

لكن الشاب يصر على صمته فيشعل جان سيجارته، ولا نعود نسمع صوت مانكو في هذه اللحظة بعد أن ظل طوال المشهد يتكلم، وعندئذ يقول فرانسوا..

فرانسوا : نشكر الشاهد.

فيجمع مانكو ملفاته ويتأبطها ويعود إلى مكانه فتنهض

سوزان..

سوزان : وأنا أطلب الإدلاء بشهادتي فقد عشت عشر سنوات يومًا بعد يوم بجانب هذا الرجل، وما من أحد يعرفه خيرًا مني.

يأتي فرانسوا بحركة كما لو كان يريد أن يرفض ويستدير إلى جان كما لو كان يسأله رأيه، ولكن جان لا يتحرك فيتطلع فرانسوا إلى وجه سوزان الذي يطفح بالكراهية، ويتردد لحظة ناظرًا إلى ساعته ثم يسأل الحارس الذي يقف إلى جواره:

ألم يعد داريو؟

الحارس : كلا.

يهز فرانسوا كتفيه ويشير نحو سوزان..

فرانسوا : تكلمي!

شقة إيلين...

لا يزال داريو وإيلين كما هما أمام النافذة، ثم يقول داريو بعد لحظة..

داريو : إذن وداعًا!

إيلين : وداعًا..

يتحرك داريو كما لو كان سيذهب لكنه يسألها بلا اهتمام...

داريو : أتعرفين من يدير المحاكمة؟

إيلين : أظنه فرانسوا.

داريو : أجل إنه فرانسوا اسمًا، لكنها سوزان فعلاً. سوزان هي التي تديرها. فتقفز إيلين دهشة..

إيلين : سوزان؟ لكن بأي حق. هذه المرأة...

داريو : وضعت المحلفين في جيبها وطوتهم طيًا حتى صدقوا كل ما تقول..

إيلين : (بألم) وهل ستدلي بشهادتها؟

داريو : أعتقد أنها ستروي قصة حياتها معه..

إيلين : (وقد تغير وجهها فجأة) إذن فستتحدث عن لوسيان وعني...

تقول هذا وتفتح الباب وتنادي..

- جانيت! جانيت! (ثم تعود إلى داريو) ليس لي أن

أدافع عن جان، لكني لن أسمح لهذه المرأة أن تلطخ اسمينا فقد كانت تكره لوسيان.. (تدخل جانيت) أعطني معطفي يا جانيت. سأخرج!

جانيت : أألجنت! القتال يدور في الشوارع!

إيلين : (آمرة) أعطني معطفي بسرعة!

غرفة المحكمة...

سوزان أمام المحلفين تتكلم بعنف..

سوزان: لقد هجرني، وكانت المرة الأخيرة التي رأيته فيها منذ سبع سنوات في القصر، أي في اليوم الذي تسلم فيه الحكم..

شهادة سوزان عن فترة ما قبل سبع سنوات...

ردهة القصر الكبرى. عند مدخل القصر المهجور، نرى جمعًا نميز فيه سوزان ولوسيان وفرانسوا ومانيان، وكلهم يتطلعون إلى جان الذي وقف منعزلاً. إنه نفس المشهد الذي وصفه خادم جان، ولكننا نراه الآن مرة أخرى من وجهة نظر سوزان..

يقترب جان ممتلئاً ثقة ويدفع أحد الأبواب المغلقة، فيفتح الباب فجأة ويكشف عن صف من الحجرات أبوابها مفتوحة، فيشير جان إلى أصدقائه بعظمة كي ينسحبوا كما لو كان يريد أن يمتلك وحده مقره الجديد. وتندفع سوزان نحوه، لكن لوسيان يحتجزها. ويتركهم جان ويتقدم وحده بخطو ثابت هادئ إلى نهاية الممر حيث ينتظره الخادم في مذلة، بينما سوزان ما زالت ترقب جان بحنان وحزن، وتندفع مرة ثانية في أثره، لكن فرانسوا ولوسيان يمسكان بها..

يدخل جان إلى غرفة المكتب بعد أن يحييه الخادم، يسير خلفه ثم يغلق الباب وراءه. تتطلع سوزان إلى الباب وقد أغلق ونسمع صوتها يقول بمرارة:

وعندما أصبح له خادم لم يعد يريدني! صار يحاول تجنبي ما استطاع...

الميدان أمام القصر...

تحاول سوزان أن تقترب من جان وهو يصعد إلى سيارته الكبيرة البيضاء، لكن أحد حراس جان يمسك بها ويمنعها. وتنطلق السيارة ببطء لتمر أمام سوزان التي تنادي..

سوزان : جان.. جان؟

ويتطلع إليها جان من السيارة بوجه جامد وكأنه لم يرها..

غرفة المحكمة..

نرى سوزان وقد احتقن وجهها بالغضب وقد أنهت حالاً جملة وجهتها للمحلفين، ثم تتطلع إلى جان دون أن تقول شيئاً وقد زمت شفتيها، ولكننا نسمع صوتها دون أن تتحرك شفتاها، وهو في هذه المرة ذات الصوت المتوسل الذي أطلقته في الميدان المواجه للقصر، وكانت تقول:

جان، جان، لماذا هجرتني دون كلمة أو إساءة؟

لماذا؟ لماذا؟ ارحمني يا جان! إنني أحبك! أحبك!

ثم تلتفت سوزان إلى المحلفين وتقول في كراهية باردة هادئة:

إنني أكرهه! (بعد فترة) ما قدمت إلى هنا لأحدثكم عن غرامياتي! أبدًا، لكني عشت معه سنوات وعرفت ما لم تعرفونه. عرفت أنه ارتكب جريمة، ويجب أن تضمنوها قائمة الاتهام.. وإليكم قصتها:

لقد قابلت جان آجيرا لأول مرة عام – ١٩، وكان لقاؤنا هذا قبل الثورة الأولى..

شهادة سوزان عن فترة ما قبل عشر سنوات...

المؤسسة البترولية قد بطلت الحركة فيها بسبب الإضراب. ونسمع صوت سوزان تتابع روايتها..

سوزان: وكانت لي صديقة اسمها إيلين بورج، وكانت إيلين هذه تعمل ممرضة في مستشفى المؤسسة، ولم تكن قد تزوجت زوجها لوسيان دريلتش الذي اغتاله آجيرا فيما بعد.

ولقد بدأت قصتي هذه وقت الإضراب البترولي المشهور، وذات ليلة...

شقة سوزان..

نرى سوزان نائمة في سريرها، وسرعان ما يدق جرس الباب فتستيقظ وتصغي إلى الجرس يدق من جديد فتقفز من سريرها

وتضيء النور وتضع معطفاً على قميص النوم وتدلف قدميها في صندل وتتجه إلى الباب قائلة:

من الطارق؟

إيلين : افتحي، أنا إيلين.

وتفتح سوزان الباب فتظهر على عتبته إيلين، ولكنها ليست إيلين التي رأيناها في المشهد السابق. إيلين هذه شديدة التبرج، ترتدي ثوبًا يفصح عن مفاتن جسمها كما لو كانت غانية لعوبًا. هذه إيلين كما تراها سوزان..

وترى سوزان خلف إيلين رجلين فتتراجع قليلاً، وتقول لها إيلين..

إيلين : لا تراعي؛ إنهما صديقان.

ثم تدفع الباب في قوة وتكاد تصدم سوزان في طريقها وتتحدث بصوت فاجر، والرجلان يدخلان خلفهما فتراهما قذرين متعبين ممزقين الثياب، يدخل لوسيان أولاً يتبعه جان مكفهر الوجه. ونرى لوسيان يحيي سوزان بابتسامة رقيقة..

لوسيان : عفوًا.

سوزان : (فاحصة الرجلين) لكن ما هذا؟ ماذا حدث؟

جان : (في قسوة) ألديك جيران؟

سوزان : كلا! الشقة المجاورة خالية. (تتفحص وجه جان) ولكن ماذا حدث؟ من أين أتيتم؟

لا يجيب جان، لكن إيلين تجيب بلهجة أرستقراطية مفتعلة، وقد بدا عليها الاضطراب، لكنها لا تبدو حزينة.

إيلين : أواه يا سوزان! المسألة رهيبة. أنزلوا الجيش واحتل المصنع، يريدون اعتقالنا.

سوزان : أكنت هناك؟

إيلين : (باسمة عن زهو) طبعا كنت هناك، وكانا هناك أيضًا. آسفة. نسيت أن أعرفك بهما. لوسيان دريلتش وجان آجيرا..

جان : (مقاطعًا بحدة) اخرسي. (ويستمر في النظر إلى سوزان حتى يربكها ويجعلها تخفض عينيها).

إيلين : إنها أحسن صديقاتي.

جان : (يهز كتفيه) لكن ما كان هناك داع لأن تعرفيها بأسمائنا.

سوزان : إذن فلا داعي لأن تبقوا عندي؟!

جان : إذن.. (ويدور على عقبيه ويهم بالخروج لكن لوسيان يوقفه مبتسمًا).

لوسيان : اسمع يا جان. يجب أن نثق في الآنسة فهي محل ثقة على ما يبدو؟ ثم كما ترى، هي لا يمكن أن تخوننا، لا يبدو عليها..

جان : مع ذلك فنحن مجبرون، لا حيلة لنا.

وتجرح هذه الكلمات سوزان وتتصنع البرود، فيقترب لوسيان منها قائلاً:

لقد كنا الآن حالاً في المعمل وهربنا والشرطة تلاحقنا، فهل تخفينا؟

سوزان : كم؟

يهز لوسيان كتفيه لأنه لا يفهم، لكن سوزان تتردد ناظرة إلى الرجلين وتقول:

أنتما الاثنين؟

تقف إيلين بين الرجلين وتمسك بذراعيهما بعدم كلفة وتضحك في وجهيهما قائلة:

لا بل الثلاثة؟

سوزان : لكن زميلتي التي تشاركني السكن ستعود بعد غد؟

وإذ يسمع جان هذا الجواب يخرج ذراعه من يد إيلين ويسير إلى الباب..

جان : هيا فهي ترفض إيواءنا؟

سوزان : (مستاءة) انتظر يا أنت.. من قال لك إني مستاءة؟

جان : على كل حال لم يظهر عليك أنك غير مستاءة؟ (مخاطبًا لوسيان) أصبحت المسألة فيها من النساء أكثر من اللازم.

يدق جرس الباب فيفزع الجميع وينظرون إلى بعضهم بعض في قلق بينما تظل سوزان هادئة، وترفع يدها إلى فمها مشيرة عليهم أن يتبعوها. وتفتح بابًا يطل على حجرة واسعة ازدحمت بأكوام الغسيل وقطع الأثاث الفائض المقلوبة..

يستمر رنين الجرس ثم يبدأ الطرق على الباب، فتشير سوزان إلى زاوية من الغرفة قد نشرت فيها ملاءة على كرسيين..

سوزان : ابقوا هنا وتغطوا بالملاءة بسرعة!

ثم تغلق الباب عليهم وتذهب إلى الباب الكبير منادية :

سوزان : من هناك؟

صوت : الشرطي، افتحي.

تفتح سوزان الباب وهي تتصنع النوم وتتطلع إلى رجلـي الشرطة بعينين نصف نائمتين..

سوزان : ماذا تريدان؟

أحدهما : أنت تخفين بعض المضربين.

سوزان : مضربون! ما هـذا؟ (وتفـتح البـاب علـى مصراعيه) ادخلا، فتـشا، لـن أطمـئن إلا إذا فتشتما كل ركن.

يتبعها الشرطيان إلى الحجرة، يتطلعان حولهمـا، وتفـتح سوزان باب غرفة الغسيل حيث اختفى جان ولوسيان وإيلـين وراء قطع الأثاث متغطين بالملاءة التي حجبتهم..

سوزان : هنا غرفة الغسيل، ولو دخلها أحد لكان يجب أن يمر بحجرتي أولاً..

تغلق الباب وتعود إلى الشرطيين اللذين أخـذا يـستعدان

للرحيل..

سوزان : لماذا لا تفتشان.. تحت السرير مثلاً؟

شرطي : (يهز كتفيه) لا تهزلي.

يخرج الشرطيان وقد ألقيا عليها التحية فتغلق سوزان الباب بالمفتاح خلفهما وتعود إلى غرفة الغسيل فيخرج الجميع من تحت الملاءة، وتتطلع سوزان إلى جان مبتسمة وقائلة:

والآن؟ ألا زلت ترى أن المسألة صار بها من النساء أكثر من اللازم؟

غرفة المحكمة...

تتابع سوزان شهادتها أمام المحلفين..

سوزان: ولم أستطع إخفاءهم عندي فأخذتهم إلى مزرعة عمي في مكان بعيد من الريف، ولم يكن من المحتمل أن يعثر عليهم مخلوق هناك، وسار كل شيء في الأول على ما يرام، فكان لوسيان يكتب روايته الأولى، وإيلين تلعب دور الغانية، وجان يعذبه السأم من الصباح حتى المساء، أما أنا

فكنت أقوم على خدمتهم..

شهادة سوزان عن فترة ما قبل عشر سنوات...

غرفة في مزرعة سوزان، لوسيان يكتب على طرف منضدة كبيرة، بينما سوزان تلقي إلى الموقد بمجموعة من الحطب، وتختلس النظر إلى محتويات الوعاء المعلق فوق النار. أما إيلين فنراها أمام المرآة تتزين، وجان يقف أمام النافذة يتطلع إلى الخلاء ويتثاءب بكثرة من آن لآخر.

وتمر سوزان بقربه تحمل بعض الأطباق والسكاكين والشوك لتضعها على المنضدة، وتقول له:

لا يبدو عليك أنك تحب الريف.

فينظر إليها جان مكفهرًا ويزمجر من ضجره. ثم ترتب سوزان المنضدة وتفرش عليها المفرش فيجمع لوسيان أوراقه ويغلق قلمه، بينما تقترب إيلين منه قائلة:

مسكين يا لوسيان، تظلمك سوزان، بل إنها لا تحترم ما تكتب. (تخاطب سوزان) ألا تعرفين أنه كاتب عظيم، وأنك هكذا تعطلينه؟

سوزان : (بخشونة) ربما.. لكن لا بد أن يأكل مهما كان

كاتبًا عظيمًا..

ينهض لوسيان مرتبكًا لكلام إيلين ومبتسمًا لسوزان..

لوسيان : عفوًا. إني أناني فعلاً. وكان يجب أن أساعدك..

سوزان : بل إني لآسفة فقد عطلتك فعلاً.

ولكن لوسيان يتناول طبقًا ويساعدها في بسط المفرش قائلاً:

لم تعطليني أبدًا فما كنت أكتب. كنت أدون أشياء لا أهمية لها..

إيلين : (إلى لوسيان بدلع) لا أهمية لها؟ وأنا التي كنت أتوق إلى التحدث إليك وخفت أن أزعجك!

ويكون لوسيان في هذا الوقت منحنيًا على البوفيه يخرج زجاجة خمر وعددًا من الكؤوس فيبتسم برقة لإيلين ويقول لها:

إذن حدثيني!

إيلين : هل يمكن أن نعود قريبًا؟

لوسيان : لا أدري. اسألي زعيمنا فهو الذي يقرر هذه الأمور! يبدأ لوسيان يصفف الشوك والسكاكين

إلى جانب الأطباق، وتتطلع إيلين إلى جان الذي ما يزال أمام النافذة، ثم تسأله:

لماذا تدعوه دائمًا زعيمنا؟ ألست أنت زعيمًا أيضًا؟

لوسيان : كلا!

إيلين : لماذا؟

لكنه عندما يلتفت ليجيب يوقع سكينًا فينحني ليلتقطها ولكنه يوقع ثلاث شوكات، فتضحك إيلين ويضحك لوسيان ويقول لها وهو يطلعها على الثلاث شوكات التي التقطها:

ها أنت ترين لماذا لا أصلح أن أكون زعيمًا؛ ثم...

إيلين : (مقاطعة) ثم ماذا؟

لوسيان : لعلك تعرفين المثل الذي يقول "لا تصنع العجة من غير كسر البيض"؛ أما أنا فلا أحب كسر البيض حتى ولو كنت سأصنع منه عجة..

يستمر لوسيان في ترتيب المنضدة مع سوزان، بينما إيلين تنظر إليهما صامتة، ثم تتجه إلى جان وسوزان تلاحقها بنظرة

قاسية، وعندما تصل بقرب جان تلمس بخفة قفاه فيرتعد وينظر إليها نظرة اشتهاء واضحة، وتصدم إيلين فتحاول الضحك معه، لكنها تبدو مرتبكة رغم ذلك..

إيلين : يبدو أنك تعرف كيف تصنع العجة؟

جان : (مشتت الفكر، لكنه يستمر في النظر إلى فم إيلين) أي عجة؟

إيلين : لا عليك... كنت أضحك... أريد أن أسألك متى سنعود..

جان : لا أدري (من بين أسنانه مغمغمًا) لا أريد أن أعود..

إيلين : (وقد ازدادت ارتباكًا) لماذا تتطلع إليّ هكذا؟ إنك تخيفني..

جان : لكنك تعرفين لماذا أتطلع إليك.

وفي هذه الأثناء نرى سوزان تتطلع إليها بغضب قاسٍ وهي تكاد تنتهي من ترتيب المنضدة..

غرفة المحكمة...

لا يزال جان جالسًا مديرًا ظهره للمحلفين، ولكنه يستمع في هذه المرة باهتمام إلى شهادة سوزان التي نسمعها تكرر خلفه..

سوزان: أجل، كان يلاحقها، لم يكن يقول شيئًا، ولكنه كان يلتهمها بنظراته، وكان ذلك يخيفها في الأول، ولكنها كانت لعوبًا فأخذ خوفها يقل بعد ذلك..

شهادة سوزان...

نفس الغرفة السابقة في المزرعة، سوزان تكنس وتنظف أما إيلين فهي جالسة إلى المنضدة وأمامها كتاب مفتوح وجان يتطلع إليها بنظرات ثابتة فترتبك وترفع رأسها عن الكتاب..

إيلين : حدثني. قل شيئًا!

جان : وماذا أقول لك! إنني لا أحسن الكلام مثل لوسيان.

إيلين : لكنك تحسن الكلام فعلاً، بل إنك لتحسنه جدًا إذا أردت.

تتجه سوزان أثناء ذلك إلى باب المطبخ تحمل وعاء،

وتتردد قليلاً عند عتبة الباب، لكنها تقـرر المـضي وتمـلأ الوعاء وتعود لترى إيلين بين ذراعي جان الذي ينهال عليهـا تقبيلاً، لكنها تفلت من بين ذراعيه بعنف وتنظر إلـى جـان نظرة غريبة فيستدير دونما كلمـة ويغـادر الغرفـة فجـأة وبسرعة. أما إيلين فتجلس إلى المنضدة وتبكي مسندة رأسها بين ذراعيها...

إيلين : كفاية! كفاية! أريد العودة إلى بيتي!

سوزان : (تقترب منها وتمسح على شـعرها ووجههـا بشدة) أنت السبب؛ تشاغلين الاثنين بينما كان من الواجب أن تختاري واحدًا منهما..

إيلين : (ناهضة فجأة) واخترت فعلاً. إن لوسيان يريد أن يتزوجني..

سوزان : ثم ماذا؟

إيلين : وافقت.

سوزان : (وقد بدا على وجهها الانتصار لحظة) ولماذا؟ ألأنه أجمل؟ فتهز إيلين رأسها موافقة..

سوزان : ولأن لوسيان له ذراعان، وسيكون كاتبًا عظيمًا،

تظنينه لذلك أحسن الاثنين؟

نلاحظ أن سوزان تتكلم بلهجة لا أثر فيها للانفعال لكـــي تجبر إيلين على التحدث بدلاً من الرد عليها بالإشارات التـــي تنطوي على بعض السخرية، ويبدو أن إيلين قد وقعــت فـــي الشرك فنراها تمسح دموعها وتبتسم ابتسامة باردة لها معنى..

ونسمع صوت سوزان يدوي في المحكمة قائلاً:

وتزوجت لوسيان وإيلين في القريـــة.. وليلـــة الزفاف..

نحن من جديد في غرفة المزرعة السابقة، في المساء، وقد جلس كل من سوزان وإيلين وجان ولوسيان أمام الموقد والنار قد اشتد أوارها، والارتباك يخيم على الجميع، بينما ســوزان ترقبهم...

سوزان : (لتقطع السكون) وبعد.. ألن ننام؟

الثلاثة : أ.. أجل.. أجل..

لكنهم لا يتحركون، ومن جديد يغلفهم الــصمت. ونـــرى لوسيان ينظر إلى طرف حذائه بينما ينقر جـــان علـــى ذراع كرسيه، وإيلين شاردة زائغة العينين..

تدق الساعة منتصف الليل فتـــوقظهم ويتطلعـــون إليهـــا

جميعًا...

إيلين : إنه منتصف الليل. اصعدي إلى غرفتك يا سوزان فأنت تستيقظين مبكرة..

سوزان : (مصممة على الانتظار) كلا، كلا. اصعدوا أنتم فسوف أنتظر قليلاً حتى أرتب الأطباق..

لوسيان : (ناهضًا) هيا إذ لا يجب أن نبقيها ساهرة أكثر من ذلك..

تنهض إيلين وتقف إلى جوار لوسيان، ويتطلع الاثنان إلى جان الذي لم يتحرك وما يزال ينقر على ذراع الكرسي...

إيلين : إذن عمت مساء سوزان..

سوزان : عمت مساء..

لوسيان : عمت مساء سوزان..

سوزان : عمت مساء..

إيلين : (إلى جان، مرتبكة) إلى اللقاء..

لا يتحرك جان، لكنه عندما يحييه لوسيان يرفع إليه عينيه ويبتسم برقة، يذهب لوسيان وإيلين، ويمسك جان بكأس من فوق المنضدة ويضغط عليه أثناء صعودهما. الاثنان ما

يزالان يصعدان في ارتباك إلى أن يختفيا، بينما صدى خطوهما ما يزال مسموعًا. ثم يسود الصمت من جديد فيمد جان يده إلى سوزان...

جان : اغسليها..

سوزان : ماذا أغسل؟

جان : هذه..

يفتح جان يده فيظهر الدم يلطخها إذ أنه كان قد حطم الكأس فتصرخ سوزان...

جان : لا تخافي إنما اغسليها.

سوزان : ومما أخاف؟ أنا لم أخف أبدًا.

تسير إلى الحنفية وتملأ قدرًا من الماء وتعود إلى جان حاملة خرقة نظيفة ومنديلاً كبيرًا، بينما جان يتطلع إلى السقف دون أن يهتم بسوزان التي تغسل يده حتى تنتهي وتضمدها له..

سوزان : خلاص. هيا اصعد إلى غرفتك. تصبح على خير.

جان : تصبحين على خير.

سوزان : ألا تشكرني؟

جان : شكرًا.

تنهض سوزان فتصعد إلى غرفتها وتتطلع إلى المرأة مبتسمة بينما يفتح الباب خلفها ببطء، إنه جان. تنظر إليه فيخيفها شكله وتتراجع قليلاً، لكنها تستعيد نفسها بينما يقترب هو منها ببطء حتى يصير على بعد يسير منها فيتوقف وينظر إليها مهمهمًا من بين أسنانه...

جان : إن ضوء القمر ليغمر الدنيا ويخلق جوًا بديعًا لليلة زفاف؟

سوزان : أجل. إنها ليلة بديعة.

وفجأة يأخذها في حضنه ويقبل شفتيها. وأثناء ذلك نسمع صوت المحامي يقول مدويًا:

وتركتيه يقبلك وأنت تعلمين أنه يحب امرأة أخرى؟

سوزان : لم يكن يحبها. كان يشتهيها فقط!

المحامي : (بصوت مدو) وأنت؟ أكنت تحبينه؟

سوزان : إني.. إني..

ونعود إلى جان محتضناً سوزان يقبلها ثم يبتعد عنها، بينما سوزان قد أضاء وجهها. ثم نرى سوزان أمام باب القصر الداخلي، تنظر جان خارجًا في سيارته البيضاء الضخمة وهي تناديه بيأس:

جان! جان!

ثم نعود فنسمع صوت سوزان يعلن في وحشية مترددًا أول الأمر:

كلا! كلا! ما أحببته أبدًا.

غرفة المحكمة...

سوزان: (تخاطب المحلفين) ولكني وهبته حياتي. كنت خادمته. كنت أصنع له كل شيء وكان يشتهيني دومًا، لماذا؟ لست أدري، ثم صدر العفو العام فرجعنا إلى المدينة، وكون جان منظمة ثورية، أشرك فيها رفاقه، وكانوا يجتمعون عندي، وكان جان يدير الاستئثار بسلطة إدارتها وحده، لكن بنجا الصغير كان يزاحمه فيها ويعترض طريقه.

أنتم تعرفون بنجا، ألا تذكرونه؟

شهادة سوزان عن فترة ما قبل عشر سنوات...

شقة سوزان..

جان في مقعد مريح منهمكًا ولا يبدو عليه أنه يرى سوزان الجالسة قبالته..

جان : (فجأة) غليوني!

وفي الحال تعطيه سوزان غليونه محشوًا، فيضعه في فمه ثم تمد له عود كبريت مشتعل فيقول لها وهو يشعل غليونه..

جان : ستجتمع اللجنة هنا حالاً. قدمي لهم البيرة.

سوزان: كم سيكون عددهم؟

جان : ثمانية كالعادة.

يدق الباب فينهض جان قائلاً:

بدأوا يأتون فاذهبي واحضري البيرة عندما أناديك..

تدخل سوزان غرفة الغسيل، وتتناول عددًا من زجاجات البيرة فتدخلها على صينية، وتقف لحظة أمام المنضدة..

ثم تتنهد تنهيدة خفيفة وتتمالك نفسها وتعود إلى هيئة الجد

التي كانت عليها وتجلس إلى جوار المنضدة منتظـــرة بينمـــا تصل إليها من الغرفة الأخرى أصوات نقاش عنيـف فتقفــز وتحار فيما يجب أن تفعل، ثم تذهب إلى الباب تسترق النظر من فتحة المفتاح فترى أعضاء اللجنة، ومن بيـــنهم لوســـيان وإيلين وجان وبنجا، وكلهم واقفون يتناقشون في غضب، ثـــم ترى جان يمسك بنجا من جاكتته يهزه منها بغضب محتـــدم، وعندئذ تفتح سوزان الباب وتندفع إلى الغرفة...

سوزان: جان!

يفلت جان بنجا ويستدير إليها...

جان : من الذي أذن لك في الدخول؟

يتطلعون إليها كلهم، عندئذ تحس الحرج...

جان : اذهبي وأحضري البيرة.

تذهب سوزان وتعود بالبيرة على الصينية، فتضعها علـــى الطاولة وتلتقي نظراتها بنظرات إيلين التي تبتسم لها..

وعندئذ نسمع صوت سوزان تقول بمرارة...

سوزان: كانوا قد ضموا إيلين إلى اللجنة ولم يضموني..

ونعود إلى المشهد السابق فنرى سوزان ترد على ابتسامة إيلين ببرود، ثم نعود إلى غرفة الغسيل، بينما نسمع وتـــسمع

هي صوت جان يدوي...

جان : اختاروا، إما رأيي وإما رأيه!

نفس المشهد السابق بعد عدة ساعات...

زجاجات البيرة الفارغة، والكؤوس، والمنافض الممتلئة ببقايا السجائر وقد انتثرت، وجان غاضب ينقر على المنضدة...

جان : إما أنا وإما هو، لا يمكن أن نستمر هكذا، إما أنا وإما هو..

بينما جلست سوزان هادئة تخيط ثوبًا بيديها، وجان يهتف من جديد...

إما أنا وإما هو... لكني سأقضي عليه...

وتواصل سوزان الخياطة هادئة، لكننا نسمع صوتها يقول بقسوة:

وقضى عليه ذات مساء...

غرفة سوزان...

سوزان جالسة بعد عدة أسابيع تخيط ثوبًا، ثم يدق الجرس فتقدم لتفتح الباب وتدخل إيلين في ألفة على البيت...

إيلين : أين جان؟ أريد رؤية جان!

سوزان: وهل منعتك يومًا من رؤيته؟ هو عندك في غرفة الغسيل يعمل..

إيلين : في أبهى زينتها، شديدة القلق، لكنها متبذلة لأقصى حدود التبذل. تتجه إلى غرفة الغسيل وتفتح الباب دون أن تدق، فيقف جان مبتسمًا وقد ترك أوراقه كما هي، وإيلين تقترب منه، وسوزان تبقى واقفة عند الباب تريد أن تبقى، لكن إيلين تكح كحة خفيفة وتقول بازدراء...

إيلين : عن إذنك يا سوزان، أريد أن أحادث جان على انفراد.

سوزان: هل ستقولين له ما لا يسمح لي بسماعه؟

إيلين : لكني من أعضاء اللجنة يا سوزان!

سوزان: يبدو أن ظهر هذه اللجنة قوي يحتمل كل الأعذار!

تخرج سوزان وترد الباب خلفها بعنف، وتسير في غرفتها

رائحة غادية محدثة ضجة ثم تسير في خفة الذئب إلى البـــاب تسترق النظر من ثقبه وتلصق أذنها به فنسمع...

إيلين : كلا يا جان. لن تتراجع فأنت موروط للآخر..

جان : انتصرت يا إيلين، فزت، اذهبي الآن ولا تطلعي لوسيان على شيء..

ترجع سوزان إلى مقعدها وتبدأ الخياطة من جديـــد، وقـــد كست وجهها براءة من لا يعلم شيئًا. يفتح الباب وتخرج إيلين محمرة العينين من البكاء وتقول لسوزان دون أن تتوقف:

إلى اللقاء يا سوزان.

تصمت سوزان وتحملق في جان الـــذي يـــدخل الغرفـــة بخطوات بطيئة ثم تسأله...

سوزان: ماذا كانت تريد؟

جان : لا شيء!

سوزان: من حقي أن أعرف لماذا تجيئك هذه المرأة وتخلو بك في الساعة العاشرة ليلاً وفي بيتي لتخرج بعد نصف ساعة مهوشة باكية...

جان : لم تكن تريد شيئًا.

ويتجه جان إلى الدولاب ويفتحه ويبحث فيه في درج من أدراجه، فتنهض سوزان قلقة...

سوزان: عماذا تبحث؟

يخفي جان شيئًا في جيبه ولا يجيبها. فتجري سوزان إلى الدرج وتبحث فيه...

سوزان: لماذا أخذت المسدس يا جان؟

جان : لا تتعبي نفسك. هذا شيء لا يخصك.

سوزان: (وهي شبه مجنونة) ستقتل يا جان؟ هل ستقتل لوسيان؟

جان : (مذعورًا) لوسيان؟ لا تكوني حمقاء! ولماذا أقتل لوسيان؟

يتجه جان إلى الباب، لكن سوزان تعدو خلفه معترضة طريقه...

سوزان: لن تمر حتى تخبرني لمن أخذت المسدس؟

جان : (وهو يزيحها من طريقه) ابتعدي.. إنه من أجل بنجا!

سوزان: بنجا!

جان : إنه خائن وشى بنا. ومعي الدليل سأطلع اللجنة عليه.

سوزان: (متأملة) آه... إذن فقد حصلت على الدليل... ثم ماذا؟

جان : عليه أن يدفع ثمن الخيانة.

ويبتسم جان ويفتح الباب ويقول بخبث، والألم مع ذلك يضمه:

ها قد انتصرت عليه؟

ويخرج فتناديه سوزان وهو على رأس السلم...

سوزان: وإيلين، هل هي مشتركة؟

جان : (دون أن يلتفت إليها) لا تهتمي بإيلين..

فتغلق سوزان الباب ببطء...

غرفة المحكمة...

تتابع سوزان شهادتها أمام المحلفين...

سوزان : وقتل بنجا ليلاً، وبعد خمسة عشر يومًا علم الجميع أنه كان بريئًا مما نسب إليه من تهم.

ولكن بعد فوات الأوان، كان بنجا قتل. قتله لأنه كان ينافسه. ثم قتل لوسيان بعد سنوات، لأنه كان يحسده على شعبيته، ولأنه كان يشتهي زوجته!

ونسمع صوت امرأة يدوي في الغرفة...

إيلين : كاذبة!

وتستدير سوزان وكل من في المحكمة إلى حيث كانت إيلين تقف قرب داريو، وفي نهاية الغرفة، تواجه نظرات الجميع وتقول ببساطة...

إيلين : أنا إيلين دريلتش زوجة لوسيان دريلتش الذي قتل في المعتقل بأمر جان آجيرا..

وتقترب إيلين من المحلفين، جان كان قد وقف ينظر إليها، وإيلين تنظر إليه، فتتوقف مرتبكة.. وفجأة يختفي الجميع، فرانسوا والمحلفين والحرس والمحامي وجميع الحاضرين.. لم يعد في الغرفة إلا جان وإيلين ينظران إلى بعضهما، ثم تسحب إيلين نظرها عن جان فيعود إلى الغرفة أشخاصها من جديد وترتفع همساتهم في تأييد. إن إيلين ما تزال تحتفظ بالشعبية

التي كانت للوسيان لدى الجماهير. يقترب فرانسوا من إيلين ويأخذ يدها بين يديه...

فرانسوا : أشكرك.

إيلين : (تهز رأسها وتحملق في سوزان) تكذبين يا سوزان، وتعلمين أنك تكذبين. جان لم يقتل لوسيان بسبب الغيرة.

سوزان : إذن لماذا؟

إيلين : هذا ما سأشرحه للمحلفين.

سوزان : هل أتيت لتدافعي عن قاتل زوجك؟

إيلين : أتيت لأنهم طلبوا مني المجيء، وسوف أقول الحقيقة لأنك شوهتها بما قلت الآن مما استمعت إليه منك. مثلاً: أنا لم أذهب إلى بيتك ليلة مصرع بنجا في الساعة العاشرة، بل ذهبت في الثامنة..

شهادة إيلين عن فترة ما قبل تسع سنوات...

إيلين تصعد الدرج...

إن إيلين ليست كما وصفتها سوزان إنها شـــابة لا تعـــرف التبرج، متواضعة الثياب، قلقة حزينة، واثقة من نفسها لكـــن بغير غرور، بل إن صوتها ليختلف عن صوتها الذي كان لها في المشاهد السابقة والذي وصفتها به سوزان...

تدق الجرس، بينما من داخل الشقة يصلنا صوت الموسيقى المنبعثة من الراديو. تستمع إليها إيلين وهي تنتظر فتح الباب ونسمعها تقول:

لم تكوني تخيطين يا سوزان بل كنت تـــستمعين إلى الراديو..

يفتح الباب فتظهر سوزان متبرجة على آخرهـــا، ترتـــدي نفس الثوب الفاضح الذي نسبته إلى إيلين..

إيلين : سيحدث شيء فظيع يا سوزان، يجـــب أن أقابـــل جان فورًا..

سوزان: (مرتابة) حقًا يا إيلين، ولكنه الآن مع أحد النـــاس بالداخل.

ويفتح باب غرفة الغسيل أثناء ذلك، ويخرج جان قائلاً:

لماذا قلت ذلك يا سوزان؟ أنت تعرفين أني وحدي

بالداخل؟

ويقف الثلاثة جامدين...

... ثم نسمع صوت سوزان تقول في المحكمة:

وماذا إذا كان ذلك صحيحًا؟ كنت سئمت رؤيتك وأنت تحومين حول صديقي!

وفي الوقت الذي نستمع فيه إلى صوت سوزان في المحكمة، نرى الثلاثة الجامدين وقد تغيرت هيئتهم: إيلين لعوبًا، وسوزان مستكينة، وصوتها لا يزال يردد..

سوزان: كنت أكذب، هذا صحيح! لكنني لم أكن أريدك أن تري جان، كنت أدافع عن نفسي، ألا تريدينني أن أدافع عن نفسي؟

تستمر إيلين في هيئة اللعوب، وتزيح سوزان من طريقها وتأخذ جان وتدخل غرفة الغسيل، بينما تسير سوزان إلى الباب ونسمع صوتها مغضبًا يقول للمحكمة...

سوزان: أي لجنة كانت هذه! أتظنين أني لم أكن أدري ما يجري خلف الباب المغلق على بعد خمس دقائق مني!

نرى سوزان تنحني وتسترق النظر من فتحة المفتاح فتشهد جان يقبل إيلين، بينما نسمع صوت إيلين يقول بحزن:

إنك قذرة يا سوزان!

غرفة المحكمة...

تواجه إيلين سوزان أمام المحلفين، بنظرة يغلبها الحزن على الازدراء، حزن يملأ كل وجهها. ثم تتلفت إلى المحلفين قائلة...

إيلين : ذهبت إلى جان أطلب عنوان بنجا؛ كانت اللجنة قد قررت قتله وعينت لوسيان منفذاً، لكن لوسيان أخبرني في آخر لحظة أنه لن يقتل بنجا، فأردت أن أقوم عنه بعمله، لكن جان قام عني بالمهمة..

فرانسوا: ولماذا رفض لوسيان قتل بنجا؟

إيلين : إذن سأضطر إلى أن أقص القصة من الأول..

فرانسوا: أجل. (إلى سوزان) ألديك ما تقولينه؟

سوزان : كلا. ليس الآن. (مشيرة إلى إيلين) لكنها كانت أمينة سره عندما كان في أوج مجده، وكان ينام

معها. لذلك يجب أن يوجه إليهـا الاتهـام هـي الأخرى..

ولأول مرة يتدخل جان. كان ما يزال واقفًا منذ أن دخلت إيلين، ولم تبرحها نظرته...

جان : لقد هجرتني إيلين من عشرة أعوام، من يـوم أن اعتقلت لوسيان دريلـتش، كانـت سـكرتيرتي لاغير، ولم تكن عشيقتي أبدًا، وبناء عليه فهي لا تحمل أي مسئولية تجاه ما تأخذونه علـيَّ مـن إجراءات سياسية.

ويعود جان إلى الجلوس.. أما إيلين فلم تنتظر إليـه وهـو يتكلم.. ويقف فرانسوا مخاطبًا جان وسوزان...

فرانسوا: وهذا ما نعرفه، فإيلين دريلتش قد مثلت هنا أمام المحكمة كشاهدة لا كمتهمة..

(إلى إيلين) إننا ننتظر حديثك..

إيلين : (إلى المحلفين) تبدأ القصة أثناء إضراب عمـال البترول وكنت وقتها ممرضـة فـي مستـشفى

المعامل، ولم أكن أهتم بالسياسة، ولكنـــي كنـــت عضوًا في النقابة، ولم أكن قد عرفت جان بعـــد، وكان جان وقتها من زعماء الإضـــراب، لكـــن لوسيان دريلتش كنت أعرفه، وكان مـــن خيـــرة أصدقائي، كان كأخ..

شهادة إيلين عن فترة ما قبل عشر سنوات...

معامل البترول... وقد توقف العمل بها نتيجة للإضـــراب، بينما العمال قد تجمعوا في شكل جماعات صغيرة في شوارع المدينة العمالية. ونسمع صوت إيلين تقول..

إيلين : كان شولشر يدفع لهم مرتبات صـــغيرة، وبـــدأ الإضراب في مايو عام – ١٩ واستمر شهرًا..

الدنيا ليل، ولوسيان وإيلين يسيران جنبًا إلى جنب، يمـــر بهما رجل يركب دراجة مطفأة النور، ونسمع إيلـــين تـــسأل لوسيان:

ألا يزال أمامنا الكثير؟

لوسيان : كلا.

إيلين : وأين هو آجيرا؟

لوسيان : في كهف مهجور.

إيلين : (تهز كتفيها) لكن لماذا تتصرفون كالمتآمرين؟

لوسيان : كفى يا إيلين؛ أنت تعلمين أن النقابة غير معترف بها، ونحن لا نستطيع عقد الاجتماع في المدينة بصفة رسمية.

إيلين : لكني تعبت! (وتتوقف لحظة).

لوسيان : أوشكنا على الوصول. ستسرين برؤيته.

إيلين : رؤية من؟

لوسيان : تتعابطين! رؤية جان آجيرا طبعًا!

إيلين : لكني لم أتعب كي أرى جانك هذا، إنما قدمت لأحضر الاجتماع لا لمجرد رؤية الناس والتلهي بهم!

لوسيان : يا ماكرة! مع ذلك فجان سيعجبك، لأنه قوي جدًا وذكي... جان هو الذي نظم النقابة، وهو الذي يعمل كل شيء.

إيلين : (بضحكة عصبية قصيرة) ها! ها! ها!

لوسيان : ماذا بك؟

إيلين : بل ماذا بك أنت؟ إننا وحدنا.. تسير مع فتاة وتختار هذه اللحظة لتحدثها عن جان آجيرا!

لوسيان : لكن..

يتوقف لوسيان ويتطلع إلى إيلين يتردد. تمر بهما عربة يجرها حصان، يوقفها الحوذى وينحني حاملاً مصباحًا يجلو نوره إيلين ولوسين، ويكشف النور الحوذى فإذا هو جان..

جان : أهذا أنت يا لوسيان؟ اصعد بسرعة.

لوسيان : جان؟

جان : اصعد..

لوسيان : لكن معي رفيقة..

جان : إذن اصعدا كليكما!

يصعد لوسيان وإيلين، ويجلس لوسيان بين إيلين وجان ويعرفهما بعضهما ببعض..

لوسيان : جان آجيرا. إيلين بورج..

جان : طاب يومك يا آنسة.

إيلين : (باقتضاب) ويومك!

يربت جان على كتف لوسيان في أخوية قائلاً:

وأنت على ما يرام يا أخي الصغير؟

لوسيان : على ما يرام. (ثم ينظر إلى إيلين ويقول) على أحسن ما يرام. وأنت؟

جان : أنا في أسوأ حال. هل تعلم لماذا عقدنا الاجتماع؟

لوسيان : كلا..

جان : حصل شولشر على ترخيص يبيح له استيراد خمسة آلاف ألماني يوم الإثنين القادم ليعملوا بدلاً منا فيقوضوا إضرابنا.

لوسيان : يا إلهي! وماذا سنفعل؟

جان : هذا ما سنقرره.

تتضايق إيلين من حديثهما معًا وإهمالهما لها فتسلي نفسها بالتطلع إلى الحقول حتى تصل العربة أمام أحد الكهوف وقد اجتمع عنده عدة مئات من الرجال..

غرفة المحكمة...

نرى إيلين تتكلم دون أن تنظر إلى جان، أما هـو فكـان نظره لا يبرحها، وقد أدار كرسيه في اتجاهها، وتحس إيلـين به، ويظهر ذلك من طريقة تطلعها إلـى المحلفـين وإلقائهـا الكلام، إذ أنها تبدو مرتبكة لا تعثر على الكلمات المناسبة...

إيلين : وكانت شخصية لوسيان تضايقني لأنه كان ذائبًـا في شخصية جان، كما كان جان يـضايقني هـو الآخر لاعتـداده بنفـسه وثقتـه المفرطـة فـي شخصيته.. الأمر الذي جعلنـي ارتكـب عمـلاً طائشاً...

شهادة إيلين عن فترة ما قبل عشر سنوات...

الكهف السابق، هائل الاتساع وقد ركبت علـى جدرانـه بعض الفوانيس والعمال صامتون أمام صخرة عالية كـالمنبر جلس عليها جان وبنجا وأربعة عمال.

ونرى في الصف الأول من جماهير العمال إيلين ولوسيان.

ونرى جان يتكلم وقد أخذ لوسيان يتطلع إليه كأنما ليس هناك أحد غيره، وإيلين غاضبة لذلك. نسمع جان يقول:

سيصل خمسة آلاف عامل ألماني يوم الإثنين، وسيبقون ما دام أصحاب العمل يريدونهم أن يبقوا. ولن يكون أمامنا إلا أن نموت من الجوع كالحيوانات. أيها الرفاق، لقد عارضت دائمًا اللجوء إلى التخريب والإضراب، وكنت اعتبرهما وسيلتين سيئتين لأنهما تستهلكان طاقاتنا. وكنتم ترون غير رأيي. كنتم ترون رأي بنجا، وصوتم على الإضراب، وها هي نتيجة رأي بنجا وتصويتكم في صفه. ها أنتم ترون الخطر الذي ينطوي عليه اليوم. اليوم أطالبكم بالتصويت على استئناف العمل..

بنجا : (يتطلع إلى جان بغضب) أيها الرفاق، لن نستسلم بعد شهر من الكفاح والتضحية! ولن ندع مجيء خمسة آلاف عامل ألماني غرباء عنا يثبط همتنا!

جان : ولو فعلنا، فماذا بعد ذلك؟ إني أكرر عليكم مرة

أخرى أن هؤلاء العمال لو بدؤوا العمل في معاملنا فلن يخرجوا أبدًا. قل لي يا بنجا، تريدنا أن نستمر في الإضراب، فما هي خطتك؟

بنجا : أن نقاوم..

جان : لكن كيف تقاوم؟

يصمت بنجا والجماهير، بينما ينحني لوسيان على إيلين ويهمس في أذنها...

لوسيان : هل يعجبك؟

إيلين : أبدًا. يبدو عليه أنه قاسٍ، وتنطوي مقترحاته على الجبن.

وفي نفس اللحظة يلتفت جان إلى بنجا مادًا إصبعه إليه قائلاً:

كيف تقاوم؟

ونسمع إيلين تقول من بين أسنانها...

إيلين : جبان! جبان!

لوسيان : (محتجًا بحدة) اسكتي! أنت مجنونة؟ سهل أن تنتقدي ما دمت لا تحملين أي مسئولية!

جان : (دون أن يرفع عينيه عن بنجا) كيف تريد أن تقاوم؟

بنجا : عندنا مال يكفينا شهرًا لكي نقاوم ونصمد!

جان : (متعجبًا) وبعد ذلك؟ بعد أن يمضي الشهر ماذا نفعل؟ أتسمعون أيها الرفاق؟ يوصيكم بالإضراب ولا يشير عليكم بالطريقة التي تستطيعون معها أن تتحملوا نتائجه وتسيرون فيه!

يخيم السكون لحظة، لكن إيلين تقول بصوت خائف..

إيلين : ولماذا لا نحتل المعامل؟

جان : (يلتفت إليها فجأة) ماذا؟

إيلين : (بصوت قوي) قلت لماذا لا نحتل المعامل؟

لوسيان : كفى يا إيلين، أنت مجنونة؟!

جان : هذا الاقتراح لا يستحق منا حتى مجرد البحث. فلو احتللنا المعامل لاتهمونا بخرق القانون والاعتداء على أملاك الآخرين، وسوف يستغلون هذه الفرصة لاستقدام قوات الجيش واستخدامها

ضدنا.

إيلين : (مغضبة جدًا) دائمًا تتقهقرون! دائمًا تستسلمون وتنقادون! أيجب أن نعود خافضي الرؤوس؟ (ثم تستدير إلى الجماهير) هل تريدون العدول عن الإضراب أيها الرفاق؟ هل تريدون التخلي عن النضال عند أول مقاومة تواجهكم؟

جان : (ينحني من المنبر على إيلين ويقول لها من خلفها)

اخرسي يا بنت!

بنجا : لو عدنا مقهورين إلى المعامل ستكون مصيبة وحلت بنا. لقد أرقنا ماء وجهنا ولن نستطيع بعد اليوم أن نقوم بأي إضراب. إنهم يعرفون قوتنا بأن يواجهونا بقوة تفوقنا، فلنقبل التحدي الذي يفرضونه علينا. أما القول بأننا لو احتللنا المعامل فسيستقدمون الجيش فهذا قول باطل لأنهم لن يجسروا عليه، إذ كيف يجسرون عليه وقوى

الشعب كلها تقرنا على عملنا وتساندنا. وإذن فهل نستسلم وننقاد؟ هل نعود إلى العمل كالأولاد العاقلين؟ هل يجب أن تدفعنا امرأة إلى المعركة؟ إنني أعرض عليكم اقتراحي، ولتصوتوا عليه، فمن الذي يوافق على احتلالنا للمعامل؟

جان : لكن هذا جنون وإجرام!

بنجا : (زاعقًا) فلنطرح الاقتراح للتصويت.

يبدو التردد على العمال أولاً ثم تبدأ الأصابع ترتفع وينال الاقتراح الأغلبية الساحقة..

بنجا : والآن من الذي يعارض الاقتراح؟

وترتفع بعض الأصابع منها أصابع جان ولوسيان..

بنجا : إذن فقد قررتم احتلالها، والآن لنعد جميعًا إلى عملنا غدًا، وليبق كل منكم في مكان عمله حتى ننظم الاحتلال هناك..

يصير جان عصبيًا ويقفز نازلاً من المنبر، بينما ينسحب العمال، ويقترب جان من لوسيان وإيلين التي تبتسم له مزهوة بالنصر...

إيلين : ها أنت ترى أن "البنت" قد تستطيع عمل كل شيء.

جان : لقد ارتكبت حماقة لن أغفرها لك..

وينظر إليها في قسوة ويختفي بين العمال، بينما تنهض إيلين وتتصرف هي الأخرى يتبعها لوسيان، والزهو يملأها مع بعض الحرج..

إيلين : صوّت طبعًا مع آجيرا؟

لوسيان : (برقة) ليس مع آجيرا، لكن حالما يصل الألمان سترين يا إيلين أن..

إيلين : (مقاطعة) سأرى ماذا؟

لوسيان : ستحصل حوداث عنف كثيرة، لكني لن أشارك في أي منها أبدًا...

قاعة المحكمة..

نرى إيلين تتكلم وقد كساها الحزن...

إيلين : وتعلمون أنه قد بر بوعده فلم يشترك طوال حياته في أي حادثة عنف...

فرانسوا: أجل نعلم ذلك ونعلم أنه كان طوال حياته يـــردد هذا القول "ما من نصر يــساوي خـــسارة روح بشرية واحدة".

إيلين : ومات في سبيل رأيه، لأنه أراد أن يبقـــي يديـــه نظيفتين حتى النهاية. لكنه مع ذلك شـــارك فـــي احتلال المعامل، لأن احتلالها كان ينطوي علـــى خطورة يتعرض لها جان، وكان يريد أن يبقـــى مع جان حتى النهاية؛ لقد كان يحبه.

تتجه إيلين للمرة الأولى إلى جان بنظرهـــا وهـــي تقـــول العبارة الأخيرة برقة يضطرب لها جـــان اضـــطرابًا هـــائلاً ويصر على أسنانه والدموع تتدافع إلى عينيه، بينمـــا إيلـــين تواجه المحلفين من جديد..

إيلين : ومر كل شيء في اليومين الأولين على ما يرام، ولكن في اليوم الثالث...

شهادة إيلين عن فترة ما قبل عشر سنوات...

مباني المؤسسة والعمال يحتلون المعامل ويغلقون الطـــرق وبعضهم يتولى الحراسة. وهناك في ركن من أركان المعامل مبنى مستطيل طويل هو المستشفى، وإيلين تقف على بابه مع لوسيان والسعادة تطفر منها...

إيلين : النظام رائع يا لوسيان!

لوسيان : جان هو الذي نظم الإدارة.

إيلين : لا شك أن جانك ما يزال غاضبًا مني.

لوسيان : لم يقل لي شيئًا.

إيلين : (بشيء من الامتعاض) آه!

وفجأة يسمعان صوتًا زاعقًا...

الصوت : جنود الجيش!

ونشهد عاملاً شابًا منحنيًا فوق سطح إحدى البنايات يزعق ويده ممدودة نحو مدخل المعامل...

العامل : الجنود! الجنود!

ويحدث هرج، والعمال يخرجون من المبـــاني ويجـــري آخرون إلى الحواجز، ونسمع صوتًا يقول..

صوت : ما الحكاية؟

صوت : الجنود!

صوت : يرسلون الجنود ضدنا؟

صوت : الجنود! الجنود!

ونرى بعض العمال قد صعدوا إلى الأسطح ونسمعهم يزعقون ونراهم يشيرون...

الجنود يأتون من ناحيتين.

ويعود الهرج، ويخرج جان وبنجا من إحدى البنايات ليحيط بهما العمال في الحال، ويكبر عددهم ونسمع صوت جان من وسطهم يقول:

لا تتكلموا كلكم مرة واحدة، اسكتوا. الهدوء.

ونرى إيلين بينهم تتعلق بذراع لوسيان في عصبية وهي تقول بخوف:

إني... إني...

لوسيان : لا تخافي يا إيلين، لا تخافي.

ويطبق الصمت الذي يقطعه جان...

جان : لقد خاننا الحظ لكن لا تلوموا أحدًا، علينا الآن

أن نخرج من هذا المأزق؛ لا يعقل أن نقاوم ولا سلاح عندنا، ولو قاومنا سينتهي أمرنا بمذبحة لا طائل منها، ولا يجب أن نبقى هنا، فلــو بقينــا فسيعتقلونا ويرحلونا مكبلين، فهيا اصطفوا!

يتردد العمال، ثم ينتظمون ويصطفون ثلاثة ثلاثة، ويزعق فيهم جان:

فليتقدم الشيوخ..

وينصاع الجميع له فيقول...

جان : والآن نحو الحواجز وافتحوا البوابات.

يذهب بعضهم ويفتح البوابات ويقترب جان من شيخ أشيب يقف في الصف الأول...

جان : تقدم أيها الشيخ... قل لهم إننا سنخرج وإنهم لو تركونا نمر فسوف نستأنف العمل غدًا..

ثم يتوجه جان بكلامه إلى العمال:

أريد ثلاثة يتطوعون لمرافقته.

يخرج من الصف ثلاثــة متطــوعين يحيطــون بالــشيخ ويخرجون إلى البوابة، وبينما يتوقف العمال كلهم في الساحة

يقترب جان من إيلين ولوسيان مبتسمًا...

جان : هيه يا لوسيان .. كيف الحال؟

لوسيان : أتعتقد يا جان أنهم سيضربونهم بالنار؟

جان : ربما.

إيلين : (بصوت مختنق مغلول) لقد انتصرت!

يتبادلان النظرات المغلولة لحظة ثم تتحرك نحوه إيلين لكنها ترتد وترتمي بين ذراعي لوسيان باكية...

إيلين : إنني أكرهه، لا أريد أن أراه..

وفي هذه اللحظة نسمع ضجة كبرى وأصواتًا تزعق..

- لقد أتوا! أتوا!

ونرى العامل العجوز وأصحابه الثلاثة يعودون إلى إخوانهم فيتجه إليهم جان وبنجا ولوسيان وإيلين ليستمعوا إلى ما سيقوله الشيخ...

الرجل : إنهم يقبلون لكن بشرط اعتقال آجيرا ولوسيان دريلتش والممرضة...

يحتج العامل فيرفع جان يده مطالبًا بالصمت...

جان : لقذ أمروا باعتقالنا، لكنا نستطيع الهرب عن

طريق المجاري، هيا اخرجوا!

وتبدأ الصفوف في المسير فتمر بالبوابة، وعندما يقترب بنجا من جان وإيلين ولوسيان يتطلع إليه جان ويقول:

لم يذكروا اسمك يا بنجا! ماذا تنتظر؟

لوسيان : أنت مجنون، اذهب يا بنجا! سيحتاج إليك رفاقنا لو قبضوا علينا.

ويخرج العمال وبنجا معهم، وبينما يخرجون يقترب جان ولوسيان وإيلين من الحاجز الشبكي ويرقبون الطابور متجهًا إلى الجنود الواقفين بلا حراك وقد استقرت بنادقهم إلى جوارهم ويبدو القلق على وجه لوسيان...

لوسيان : تظن أن الأمر شرك؟

جان : لا أدري... لكن ما صنعناه هو الشيء الوحيد الممكن.

وفي هذه اللحظة يمر طابور العمال بين صفين من الجنود الذين لا يتحركون حتى يبتعد العمال في سلام فيأخذ جان ذراع إيلين ويسير إلى لوسيان لا تسعه الفرحة...

جان : تركوهم يمرون..

ويبدو على لوسيان نفس الفرحة، أما إيلين فتبقى عـــصبية لكنها قد انزاح عن كاهلها هم...

جان : والآن هيا إلى المجاري.

ويجر إيلين وهو يركض ولوسيان يجري إلى جوارهما...

قاعة المحكمة..

إيلين : وخرجنا عن طريق المجاري، وأخذتهما عنـــد سوزان، وأمضينا الليلة عند ســـوزان، عنـــدها حتى الصباح فأخذتنا إلى مزرعة عمها.

شهادة إيلين عن فترة ما قبل عشر سنوات...

الطريق الزراعي.. نرى لوسيان وإيلين وجان يتنزهون في الحقول وإيلين بينهما وكل ذراع من ذراعيها يمسك به أحدهما، ومن خلفهم مزرعة عم سوزان.. ونسمع صوت إيلين يقول:

وتصالحنا أنا وجان، وكنا نتنزه نحن الثلاثة معًا،

أما سوزان فكانت تفضل البقاء في المزرعة...

يسير الثلاثة في طريق يوصل إلى ضفة مجـــرى مـــائي فيتوقف لوسيان.

لوسيان : ما رأيكم لو عبرناه إلى الحقول الفسيحة؟

إيلين : أهو عميق؟

لوسيان : لن يصل الماء إلا إلى ركبنا.

لكن إيلين ترتجف..

لوسيان : وماذا سيسبب ذلك؟

ويجلس ليخلع حذائيه وجوربيه ويثني سرواله إلى ما فوق ركبتيه، ويفعل جان مثله..

إيلين : لا بد أن يكون ماؤه شديد البرودة..

لوسيان : إذن دعيني أحملك..

إيلين : أنت؟ لنجرب!

تقول له ذلك برقة كما لو كانت تحادث أخًا لها، فيأخذها لوسيان بين ذراعيه ويرفعها بصعوبة ثم يضعها على الأرض مصعدًا نفسًا تعبًا فتضحك إيلين...

إيلين : لا عليك.. سأعبره وحدي..

ولكن جان ينهض وينظر إليها في قسوة ويقول:

أنا الذي سأحملك..

إيلين : أنت؟!

تتطلع إلى جان بتحد فيقول ساخرًا:

ألأني بذراع واحدة؟ لكنها مع ذلك تكفي، فتعلقي برقبتي..

وفي هذه الأثناء كان لوسيان قد وصل إلى حافة الماء، وتبادل جان وإيلين نظرات التحدي الممتلئة بها أعينهما..

لوسيان : هيا.. ألن تأتيا؟

إيلين : ها نحن قادمان؟ (إلى جان) ماذا تنتظر؟

وتقترب منه وتطوق عنقه ويحيط جان أسفل ساقيها بذراعه اليسرى ويرفعها كالريشة ويخوض بها الماء ونراه يشد على خصرها وتستسلم لحظة وتسند رأسها إلى كتفه لكنها لا تلبث أن تتمالك نفسها فجأة وتنظر إليه في غير ود، خجلة من استسلامها والأنثى التي بداخلها، التي دفعتها رجولة جان وصلابته إلى السطح فتقول:

اتركني. اتركني..

لكن جان ينظرها بوجه قاس مكفهر..

جان : أتركك؟ كيف والماء يصل إلى ما فوق ركبتي..

لكن إيلين تحاول انتزاع نفسها فيشدها جان إليه أكثر

فتضربه بقبضة يدها على صدره وظهره..

إيلين : اتركني! قلت لك اتركني!

أما لوسيان الذي كان قد وصل إلى الضفة الأخرى فقد أخذ يضحك ويقول:

شدها إليك أكثر.. شدها إليك أكثر.. أنا قادم إليك..

ويخوض لوسيان الماء، لكن جان يسير بسرعة أكبر حاملاً إيلين التي ما تزال تحاول رده عنها. ويصل إلى الضفة الثانية فينزلها. وما تكاد تهبط على الأرض حتى تبتعد عنه خطوات وتقول بجفاء:

إني لأكره أن يحملني أحد..

لكن جان ولوسيان يجلسان يجففان ساقيهما ويضعان حذائيهما، ويستأنف الثلاثة المسير صاعدين إحدى الهضاب حتى إذا وصلوا إلى القمة جلسوا يتأملون الحقول ويرون الدخان البعيد المتصاعد من المداخن في البلد والمصانع ومعامل البترول..

ونسمع صوت إيلين:

كان أقوى مني، وكنت مضطرة إلى تحديه طوال

الوقت..

ونرى إيلين جالسة بين جان ولوسيان ترقب جان في حقد ثم تقول في عنف:

بالاختصار أنت لست شجاعًا فحسب لكنك جبار كذلك..

لوسيان : إنه قوي جدًا..

إيلين : (بضحكة قصيرة) رجل حقيقي.. هيه؟ ولكن.. لماذا إذن تطلب دائمًا النكوص؟

جان : (يتطلع إليها في حزن ويجيب ببطء أسفًا) لم يحدث أن طلبت النكوص...

إيلين : لكنك طلبت إنهاء الإضراب!

جان : أجل لأني ضده حاليًا، وضد التخريب، وأنت نفسك رأيت ما آل إليه الإضراب. نحن لن نقوى على شولشر وأعوانه وأذنابه، والحكومة تساندهم بالجيش والشرطة، وهم يستطيعون بذلك طردنا من المعامل وسحقنا..

إيلين : وإذن..

لكن جان لا يرد على إيلين مباشرة، إنما يوجه الكلام إلى لوسيان..

جان : الواقع يا لوسيان أني كنت أريد أن أتحدث إليك في هذا..

إيلين : (وقد أونيت) هل أنا متطفلة عليكما؟

جان : (لا يلحظ سخريتهما ويقول بلا مبالاة) كلا، ابقي. (ومن جديد إلى لوسيان) لقد جاء الوقت لتغيير سياستنا فالأحوال سيئة للغاية والفلاحون يقترضون ليأكلوا، والطعام غير متوفر في المدن، وهكذا أصبحنا في وضع ثوري، وستحين فرصتنا في خلال خمسة أو عشرة أعوام، وبذلك لا يكون عدونا هو شولشر، لكن حكومتنا.

لوسيان : وبعد؟

وينقر بعود يابس على حذائه مستغرقًا في هم، أما جان فينفعل مهتزًا وهو يتكلم بينما إيلين تصغى إليه دون أن ترفع عنه ناظريها..

جان : وبعد يجب أن نغير منهاجنا. يجب أن نعدل عن الإضراب. يجب أن نؤلف لجنة مركزية وحزبًا سريًا له فروع في كل المصانع، بهذه الطريقة نبني جهازًا ثوريًا يستطيع عندما يأتي اليوم المناسب أن ينظم الإضراب العام ويشعل الثورة المسلحة. سيأتي بنجا وتورليتز بعد غد للتحدث في ذلك. وفي خلال أسبوعين سيصبح بإمكاني العودة إلى المدينة لأبدأ العمل، فهل توافقني؟

يستمر لوسيان في النقر على حذائه لا يجيب، فتبدو الدهشة على وجه جان ويسأله من جديد:

هل توافقني؟

لكن لوسيان يظل صامتًا..

جان : قل ما الذي لا يعجبك؟

هنا يرفع لوسيان وجهه حزينًا ويتكلم بتردد..

لوسيان : إني.. إني لن أستطيع أن أسير معكم..

جان : ولماذا أيها الأخ الصغير؟

لوسيان : أنت تعلم ما سيؤول إليه مشروعك، آلاف من القتلى هنا وهناك. كلا لن أستطيع السير معكم وتحمل مسؤولية هؤلاء القتلى. إنني أفزع من العنف..

جان : لكنك وافقت على الإضراب؟

لوسيان : الإضراب عندي مقاومة سلمية، ولم يحدث أن قتل فيه أحد، بالإضافة إلى أنني كنت ضد فكرة احتلال معامل البترول..

جان : (مشيرًا إلى المدينة والمصانع من بعيد) انظر إلى هناك.. آلاف العمال يكدحون في شقاء، أليسوا ضحايا العنف؟ ألا تكون ضالعًا مع العنف في مسؤوليتك عن إبقاء هؤلاء البائسين في وهدة البؤس التي هم فيها إذا لم تناضل ضده؟

لوسيان : أجل أريد أن أقاوم العنف، لكن على طريقتي..

أنا لست رجل تنفيذ، وعملي أن أكتب، وكم أود لو ألغي العنف وأقضي عليه، لكن بقلمي..

جان : (ضاحكًا بغل) لا تريد أن يصيبك مكروه في المعركة؟ أليس كذلك؟

لكن لوسيان لا يرد ويصمت تعسًا فيوجه جان الكلام إلى إيلين يائسًا..

جان : قوليها له.. قوليها.. ألا ترين أنه قد تمادى؟

أما إيلين فقد أخذت تنظر إلى الاثنين وتهم بالكلام ولكنها تتردد ثم تخفض رأسها وتقول بصوت ضعيف كما لو كانت تكلم نفسها:

لا أدري..

جان : (ناهضًا في غضب) إنكما غبيان..

يقول هذا ويبتعد عنها فتنظر إيلين بحنان إلى لوسيان الذي يقول مخاطبًا جان يريد إقناعه:

هذا صحيح فأنا أحرص على أن أظل نظيفًا ما أمكنني.. ثم ألا يمكن أن أدافع عن هؤلاء العمال دون أن أوسخ نفسي؟ هل يجب أن

أسفك الدم وأزهق الأرواح؟ إنني .. إنني أريد أن أفعل ما هو صواب.

إيلين : ولكن ما هو الصواب؟

لكنها تطوق كتفي لوسيان بذراعيها وتضيف:

إنك رقيق جدًا يا لوسيان..

ويعود جان إليهما وقد هدأ، وبانت عليه الحيرة بدلاً من الغضب، ويجلس مبتسمًا في وجه لوسيان الذي يبادله الابتسامة.. ثم يستأنف جان حديثه..

جان : اسمع يا لوسيان.. صحيح أني شرس، لكني لا أريد أن أفقدك، أنا أوافقك أن هذه الألاعيب لا بد أن توسخ صاحبها، ولكن هناك حدودًا لا يمكن أن أتعداها في هذه الوساخات فأنا أيضًا لا أحبَ العنف، وإذا خطر في بالي يومًا أني سأخوض في الدم...

ويقطع كلامه لينظر إلى لوسيان نظرة مستعطفة ويقول:

سايرنا يا لوسيان. كان منا دائما الإنسان الذي يقول لنا "قفوا" إذا رآنا نستخدم وسائل غير

سليمة أو دموية.

ليس من سواك يستطيع أن يقولها لأنك نظيف.

وأثناء ذلك تكون إيلين قد استعادت هدوءها، ولكن الدهشة تبدو عليها..

إيلين : تريدون أن يكون ضميركم؟

جان : أجل إذا شئت ذلك. أتقبل يا لوسيان؟

لوسيان : (متطلعًا إليه في ارتياح) على هذا الأساس أقبل..

جان : (مادًا يده إلى لوسيان عبر ركبتي إيلين) إذن كفك..

تتطلع إيلين مبهورة إلى اليدين اللتين كادتا تستقران على ركبتيها، يد لوسيان الناعمة الرقيقة ويد جان الغليظة ذات العقد والأصابع الطويلة القوية..

لوسيان : (لإيلين) وأنت أيضًا هاتي يدك..

وتمد إيلين يدها تضعها فوق يد جان ثم تسحبها وتمسك بيد لوسيان وتضغط عليها...

قاعة المحكمة...

نرى إيلين تتحدث كما لو كانت تحادث نفسها:

وأحببتهما الاثنين. لكن جان كان يخيفنـــي، قاســيًا شديد القسوة، وكان وجوده يثقل عليّ، وكــان هــو يحس ذلك مني، ويؤمن أني أناصبه العــداء، ولــم يحاول أن يغازلني أبدًا لأنه كان يعرف أن لوسيان يحبني، وكنت أنا أحب لوسيان حبًا رقيقًــا وقبلــت الزواج منه، وليلة الزفاف..

شهادة إيلين عن فترة ما قبل عشر سنوات...

بيت عم سوزان في الريــف، وســوزان وإيلــين وجــان ولوسيان جالسين أمام الموقد في المشهد الذي سبق أن رأينــاه مرويًا من وجهة نظر إيلين.. جان ينقر بأصابعه علــى ذراع الكرسي فتقوم إيلين وتنظر إليه في اضطراب ثم تضع يــدها على كتفه ولكنها تتمالك نفسها وتسحب يدها وتقول في فتور:

إلى اللقاء يا جان..

جان : (دون أن يرفع رأسه) إلى اللقاء..

لوسيان : (يقترب منه ويضع يده على كتفه) إلى اللقاء..

جان : (يرفع رأسه ويواجه لوسيان مبتسمًا) إلى اللقاء أيها الأخ الصغير..

وتتطلع سوزان إلى ما يدور بانتباه شديد، بينما يصعد لوسيان وإيلين السلم، وفي منتصفه تتوقف إيلين والألم يبدو على وجهها..

لوسيان : ماذا بك؟

إيلين : لا شيء.. هيا...

وتواصل الصعود وعندما تصل إلى النهاية يوقفها لوسيان مبتسمًا، لكن نظراته يشوبها القلق..

لوسيان : قولي لي الآن حالاً.. لماذا تحبينني؟

إيلين : (ضاحكة في حرج، وتقول باحتجاج) أوف.. ليس على السلم يكون هذا السؤال!

لوسيان : بل أجيبيني الآن حالاً...

إيلين : (تضحك في خفة وتمسك ذقنه وتقول له كما لو كانت تحدث نفسها) لأنك ملاك...

لوسيان : وأنا مثلك لا أستطيع إلا حب الملائكة..

.. ويدخلا حجرة نومهما...

حجرة نوم إيلين ولوسيان...

في الصباحية.. تفتح إيلين الباب لتخرج مرحة مندفعة تنادي على لوسيان:

لوسيان.. تعال هنا..

لوسيان : (مقتربًا منها محرجًا) تعرفين.. إني خجلان أن أنزل إليهما.. أحس أني كالعبيط..

إيلين : لا تبال.. هذا ما يحدث دائمًا لكل العرسان...

تقول هذا وتجره من يده لينزلا معًا، بينما جان وسوزان ينتظران في الصالة يبتسمان.. وتسأل سوزان إيلين..

سوزان : هل نمت جيدًا؟

إيلين : أجل.. وأنت؟

جان : لقد نمنا معًا...

يقول هذا ويبتسم ولكن ابتسامته لا تخفي عواطفه واكفهراره. ويسر لوسيان لقول جان فيضحك قائلاً:

صحيح؟ إذن فلن نكون نشازًا أنا وإيلين..

جان : (مثبتًا نظره على إيلين) بل إنكما أوحيتما إلينا بالفكرة... وتختفي ابتسامة سوزان وتنظر إلى جان بفزع..

قلعة المحكمة...

تنظر إيلين إلى جان بنفس النظرة الدهشة التي نظرت إليه في بيت المزرعة، بينما يطرق جان برأسه يتطلع إلى ما بين قدميه، وتستدير إيلين إلى المحلفين..

إيلين : واستمرت حياتنا معًا إلى أن عدنا إلى المدينة بعد قليل فبدأ جان ينظم النشاط السري ولجنة الحزب التي عرفتموها تحكم ولكنكم لم تعرفوا من يكون أعضاءها، وكانت الأوامر تصدر من هذه اللجنة وهي التي نظمت الثورة. وكان جان ولوسيان من أعضائها وكذلك بنجا وأنا، وثلاثة رفاق آخرون ماتوا، هم بارير وديلبش ولانجيه، وكان اجتماعها يتم في بيت سوزان وجان. وذات يوم ذهبت مع

لوسيان..

شهادة إيلين عن فترة ما قبل ثمانية أعوام...

إيلين ولوسيان متأبطين، ويستدير لوسيان إلى شارع جانبي خالٍ من المارة وعندئذ تدهش إيلين..

إيلين : إلى أين؟

لوسيان : عندي موعد مع كارلييه، سيقدم لي تقرير لابيك عن نشاط المناطق الجنوبية...

إيلين : وأين ينتظرك؟

لوسيان : أمام محل بائع الأحذية في شارع فرديناند..

إيلين : ما هذا العبط؟! المكان هناك مكشوف!

لوسيان : أجل، لكن بنجا هو الذي اتفق معه..

ويواصلان السير حتى يظهر أمامهما شاب يحمل حقيبة صغيرة ويتظاهر بالنظر إلى واجهة محل الأحذية بينما من الطرف الآخر يقف رجلان يرقبانه..

يلمح لوسيان الرجلين فيجر إيلين من ذراعها ويوقفها أمام واجهة محل جواهرجي ويهمس..

لوسيان : حذار؛ مخبران يراقباننا.

إيلين : متأكد؟

لوسيان : أجل، لكن لا بد أن ننبه رفيقنا.

وفي هذه اللحظة يعبر المخبران الشارع ويقتربان من حامل الحقيبة الذي يراهما من زجاج المحل فيعدو فجأة بأقصى سرعة، وعندئذ يخرج أحد المخبرين مسدسه ويطلق النار فيسقط الشاب وتقع منه الحقيبة وتنفرط منها أوراقها متطايرة.. لوسيان وإيلين لا يتحركان، وإنما يتجهان بناظريهما إلى الشاب القتيل، وتهم إيلين بالذهاب إليه ولكن لوسيان يحجزها..

لوسيان : لا تتحركي. يجب أن نبلغ اللجنة حالاً...

شقة سوزان...

نرى جان وبارير وديلبش ولانجيه واقفين يتحدثون، عليهم سيمات الجد وفجأة يدق الجرس..

جان : من؟

لوسيان : نحن.

يفتح جان الباب فيدخل لوسيان تتبعه إيلين وقد انكرش نفسها وبدا عليها الاضطراب الشديد. ويستجمع لوسيان أنفاسه..

لوسيان : قتلت الشرطة رسول الاتصال مع المناطق الجنوبية..

جان : ماذا؟!

إيلين : أجل؛ حاول أن يجري، وكانوا اثنين من المخبرين، لكنهما أطلقا عليه النار فسقط، وكنا قد وصلنا..

بارير : ألم يتعرفا عليكما؟

لوسيان : رأيتهما في الوقت المناسب، ولو كنا تقدمنا عشر ثوانٍ فقط لوقعنا في أيديهم..

ديلبش : (متهالكًا على كرسي) منذ شهرين وهذه الحوادث تقع باستمرار؛ لا بد أن أخبارنا تصل إلى

الشرطة..

جان : أليس بنجا هو الذي اتفق على الموعد؟

لوسيان : أجل بنجا.

جان : (بغضب) في هذه المرة وضح كل شيء.. اسمعوا، تذكرون من سنتين عندما قدمت قوات الجيش تعتقلنا، لم تطلب بنجا يومها، وعندما أقمنا عند سوزان لم يكن يعرف طريقنا إلا بنجا، وبمقتل عميلنا ضابط الاتصال مع المناطق الجنوبية اليوم يبلغ عدد الذين أوقعتهم الشرطة في مواعيد اتفق عليها بنجا ثلاثة.. ثم هناك شيء آخر، وجد بارير على منضدة بنجا قصاصة ورق كتبها رجل يدعى لوني يشكره فيها على المعلومات القيمة التي قدمها له، فماذا تستخلصون من كل هذه الوقائع؟ أليس بنجا هو المبلّغ؟

وينظر جان إلى رفاقه مستفسرًا فيومئ لانجيــه ودبلــيش بالإيجاب ويشعل ديلبش غليونه ويقول هادئًا:

أجل هو المبلغ عنا، وكنت أشك فيه من زمن...

جان : (مستديرًا إلى إيلين) وأنت يا إيلين، ما رأيك؟

إيلين : لا أعرف.. أظنه فعلاً المبلغ..

لوسيان : (منفعلاً) لكنكم لن تحاكمون رجلاً في غيابــه. استدعوه يدافع عن نفسه أولاً..

جان : مستحيل، لو استجوبناه ووجدناه المبلغ فإننا لــن نستطيع تركه، لأننا لو تركناه سيذهب فورًا إلى الشرطة، ولو صفينا أمورنا معه هنا تعرضــنا كلنا للخطر.

لوسيان : (متوسلاً) انتظروا قليلا واختبروه حتى تتحقــق من خيانته كي لا نقع في أي خطأ.

جان : (بحسم) إذن قرروا حالاً فمصير الحزب معلــق بقرارنا، قرروا، من يؤيد تنفيذ الحكم فيه حالاً؟

وفي الحال ترتفع أيدى لانجيه وبــارير وديلــبش وجــان

بالموافقة، أما إيلين ولوسيان فلا يتحركان...

جان : أربعة أصوات من ستة..

لوسيان : وإذا ظهرت براءته؟

جان : (يهز كتفيه بعدم اكتراث ثم يسود الصمت إلى أن يقول) إنني آسف، لكن يبدو أن واحدًا منا لا بد أن يقوم بهذه المهمة القذرة، فمن سيقوم بها؟

ويسود الصمت من جديد.. لكنه صمت رهيب في هذه المرة..

جان : فلنقترع على أينا يقوم بها.. ولنستثني إيلين طبعًا، أما لوسيان..

إيلين : (في هياج) لكنه لا بد أن يقترع معكم، وإلا ضاعت الثقة بيننا..

جان : لكنه ضد إعدام بنجا..

إيلين : لا يهم، عليه أن يخضع لقرار الأغلبية..

جان : إذن فليكن..

يقولها ويبدأ في تقطيع ورقة إلى خمسة أجزاء، يرسم على

أحدها صليبًا بالقلم الرصاص، ثم يطوى الأوراق ويضعها في فنجان...

جان : هناك أربع وريقات بيضاء، والخامسة عليها صليب. من يسحب الصليب ينفذ الإعدام..

ويضع جان الفنجان على المنضدة فيمد ديلبش يده ويسحب وريقة ويبسطها بعصبية فتخرج بيضاء. ويسحب لوسيان وهو يقول بصوت جامد:

لا فائدة من المضي في السحب.

ويلقي وريقته على المنضدة وتتناولها إيليين وتطلع عليها الآخرين فإذا هي الوريقة التي تحمل الصليب، وترتجف يد إيلين، ويتشنج لوسيان..

لوسيان : إنني ماض أشم الهواء.

ويسير إلى الباب، بينما يذهب جان ليصافحه، ولكن لوسيان لا يرى يد جان الممدودة، أو أنه يتظاهر بأنه لا يراها، ويفتح الباب.

وفي نفس اللحظة تفتح سوزان باب غرفة الغسيل، وينظر جان إليها ويقول لها في هدوء..

جان : ألم يعد عندنا بيرة؟

شقة إيلين ولوسيان...

أثاثها متواضع ولو أنه أحسن من أثاث شقة سوزان وجان. الوقت ليلاً، ولوسيان جالسًا إلى منضدة وقد أراح ذقنه بين كفيه حزينًا وخلفه إيلين مكفهرة. تستدير وتفتح درجًا وتخرج منه مسدسًا ملفوفًا بالقماش وتعود إلى لوسيان؛ يتطلع إليها بوجه جامد..

لوسيان : لا فائدة..

تظل إيلين إلى جواره ولم تفهم..

لوسيان : لا فائدة؛ لن أقتله..

ثم ينهض ويتناول المسدس من يد إيلين ويعيده إلى درجه، ويعود إلى إيلين يمسكها من كتفيها ووجهه كله عذاب..

لوسيان : إيلين، أنا لست جبانًا، لا أريدك أن تعتقدي أني جبان.

إيلين : (بحنان) أعرف يا لوسيان..

لوسيان : سأستقيل من الحزب غدًا..

إيلين : (مضطربة) لكنك قبلت..

لوسيان : لم أكن قد فكرت... لا أريد.. لا أستطيع أن

أقتل إنسانًا قد يكون بريئًا..

إيلين : ونتركه يشي بالمنظمة كلها للبوليس!

ويخطو لوسيان عدة خطوات ثم ينهار على كرسي كبير..

لوسيان : لا أعِرف سوى أني لن أقتل بنجا..

وتحاول إيلين أن تعارضه لكنه يقاطعها..

لوسيان : ماذا سيكون رأيك فيّ لو قتلته وكان بريئًا؟

إيلين : (بقسوة) وماذا سيكون رأيك في نفسك إذا ما قبض البوليس على جان غدًا؟

وهنا يقف لوسيان ويخرج من الحجرة دون أن يجيبها، وتبقى إيلين وحدها للحظات، ثم تتجه إلى الدولاب تفتح درجه وتتناول المسدس..

قاعة المحكمة...

إيلين تدلي بشهادتها..

إيلين : وذهبت إلى شقة جان في نفس اليوم، كنت أريد أن أقتل بنجا أنا نفسي، لكن جان رفض، وتولى قتله نيابة عن لوسيان..

سوزان : (تقاطعها) بل قتله ليتخلص منه ويدعم مركـزه، ولو كان لوسيان قد استقال لكنت اسـتقلت أنـت الأخرى، لكن لوسيان لم يستقل ولم تستقيلي أنت الأخرى، لأن جان كان يريدك إلى جواره..

وهنا تضطرب إيلين اشمئزازًا من سوزان وتهـم بـالرد، لكن جان يسبقها..

جان : إيلين لا.. لا تردي عليها.

ويسود الصمت..

فرانسوا: (إلى إيلين) استمري..

إيلين : وفي اليوم التالي وجد بنجا ملقى ميتًا فـي أحـد الطرق الزراعية، وبعد ذلك بأسبوعين..

شهادة إيلين عن فترة ما قبل ثمانية اعوام...

شقة سوزان... لجنة الحزب منعقدة، والجميـع يـستمعون منهمكين إلى ديلبش وقد قارب نهاية خطابه..

ديلبش : أما لوناي الذي عثرنا على ورقة منه يشكر فيها بنجا فقد ثبت أنه أحد رجال الاقتصاد البلجيكيين،

وقد أرسل بنجا إليه بمعلومات عن ميزانية الأسرة الواحدة من أسر عمال البترول..

لانجيه : إذن .. كان بريئًا؟

ويهز ديلبش رأسه بالإيجاب ويسود الصمت لحظة بينما ينظر لوسيان بتقزز إلى جان الذي يجلس جامدًا يلف سيجارة بيده السليمة..

لوسيان : (بصوت مختنق متقطع) إننا.. نحن.

جان : (زاغرًا له) لا يجب أن نندم على ما فعلنا، ولو وازنا بين ما كنا فيه من خطر محدق وما كان يجب علينا أن نفعله لوجدنا أننا ما كنا نستطيع سوى ذلك، وإلا لكنا مجرمين في حق أنفسنا. ثم إن بنجا قد مات في المعركة، فهل توافقون على شطب القضية؟

باير : موافق.

ديلبش : موافق.

ويهز لانجيه رأسه موافقًا..

جان : وأنت يا إيلين؟

وتتردد إيلين ويطول ترددها، وعيناها لا تفارق عينيّ جان، وتهم بأن تقول شيئًا لكنها تمسك نفسها ثم تردف: موافقة..

جان : حسن. تتبقى مسألة، من الذي أبلغ عن رجلنا؟

وبينما جان يتكلم تقسو ملامح لوسيان ويتطلع دهشًا وخوفًا واستسلامًا إلى جان كما لو كان يقول في نفسه.. وصلت إلى هذا الحد!

قاعة المحكمة...

إيلين مستمرة في الإدلاء بشهادتها..

إيلين : ومن يومها انقطع ما كان بينهما، وكانا يلتقيان دائمًا ولكن كنت أحس أن كلاً منهما يود لو أنهى على الآخر.

وبينما تتكلم إيلين تعلو ضجة قوية من الخارج وتزداد عنفًا ثم يطغى ضجيجها على صوت إيلين حتى يغطي عليه ونسمع صوتًا هاتفًا.. الموت.. الموت..

ويستدير الجمهور كله إلى الباب ليدخل منه فجأة نحو مائة

ثائر مسلحين يهتفون الموت.. الموت.. ويحاول فرانسوا أن يبلغهم لكن الجماهير تسد عليه الطريق فيصرخ فيهم..

فرانسوا: ماذا تريدون؟ أخلوا القاعة..

فيصرخ عملاق منهم يضع قبعة نسائية لها ريش طويل.. نريد رأس الطاغية!

فرانسوا: إننا نحاكمه.. أنتم الآن في حرم المحكمة التي تحاكمه، إنني أطلب إليكم أن تصمتوا وتخلوا القاعة فورًا.. (ثم ينحني إلى داريو هامسًا) أسرع يا داريو.. استحضر نجدة وإلا انتهى كل شيء..

ويهز داريو رأسه موافقًا ويخرج وسط هتافات الثائرين، ويصرخ أحدهم.. لا تحاكموه.. لا داعي للمحاكمة.. اقتلوه فورًا!

فرانسوا: قبل أن تقتلوه أوصلوا إليه أولاً إن استطعتم! إنني آمركم مرة أخرى بإخلاء القاعة!

فتعلو ضجة الثائرين أقوى من الأول، وتعدى ثورتهم الحاضرين فنسمع أصواتًا من هنا وهناك تقول: الحق مع الثوار.. اشنقوه.. الغوا المحاكمة.. كفاية هزلاً واشنقوه..

ويصرخ الثائر ذو القبعة: إننا لا نتلقى أوامرنا منك، هيا سلمنا الطاغية.. ثم يشير بيده إشارة واسعة ملوحًا ببندقيته.. دعونا نمر.. هيا يا رفاق.. خذوه.. ويحاول الجمهور إفساح الطريق أمامهم ويتقدمون ببطء، وتقف سوزان وبعض المحلفين، وتتطلع سوزان إلى إيلين في انتصار، وتنهار إيلين عندما يبلغ الثائر ذو القبعة خشبة المسرح أو يكاد... لكن جان ينهض في لحظة صمت نسبي مخاطبًا الثوار...

جان : هل تريدون أن تجعلوا مني شهيدًا؟

لكنهم يردون عليه صارخين.. اخرس يا خائن، أخرسوه.

ويتقدمهم جان من مكان الشهود مواجهًا الثوار والجماهير..

جان : أتظنوني أخاف الموت؟ اسألوهم: هل كنت أدافع عن نفسي؟

وهنا يصوب الثائر ذو القبعة بندقيته إلى وجه جان وتتزحزح الجماهير على الجانبين، لكن جان لا يتحرك بل يقول للثائر:

هيا أطلق النار.. سيشهد العالم كله اغتيالك لي، وسوف أموت سعيدًا...

ويتردد الثائر وينتهز فرانسوا الفرصة فيذهب وينزع البندقية، ويخاطب الثائر..

فرانسوا: جان على حق. أنت لا تعرف أيها الرفيق مدى ما كنت ستلحق بنا من ضرر لو قتلته هكذا. نحن لا نريد إنقاذه بل نريد أن نحاكمه معًا محاكمة عادلة لا ظلامة فيها..

ويسود الصمت لحظة بينما يدخل حرس جدد بقيادة داريو الذي يقف بين جان والثوار، وهنا يفهم الثوار أنهم قد أضاعوا الفرصة منهم فيصمتون ويتراجعون إلى آخر القاعة بينما يصرخ الثائر ذو القبعة.. أعد إليّ بندقيتي.. ويسلمه فرانسوا بندقيته فيربت الثائر عليها ويقول مهددًا.. وإننا لنحذركم أن تطلقوا سراحه فما زالت أسلحتنا معنا... يقول ذلك ويخرج من القاعة، بينما يصطف الحراس الذين استحضرهم داريو على جانبي المسرح..

فرانسوا: إنني أشكرك.. ظننت أنك تريد أن تموت اغتيالاً..

جان : غيرت رأيي..

ويعود جان إلى مكان الشهود متجهًا إلى المحامي الذي ينظر إليه خوفًا ولا يلبث جان أن يصرخ مشيرًا إلى المحامي...

جان : خلصوني من هذا القذر... سأدافع عن نفسي بنفسي..

ويتبادل فرانسوا وداريو النظر بارتياح ثم يقول فرانسوا:

لك ما تريد. (إلى إيلين) استمري...

وتعود إيلين إلى المحلفين وقد ظهر عليها التعب وتقول بصوت أضعف:

وبعد ذلك شبت الثورة وعينني جان سكرتيرته

وعهد إليّ بإدارة صحيفة "الضياء"، وسار كل

شيء في الأول على ما يرام، ولكن بعد شهور...

شهادة إيلين عن فترة ما قبل ستة أعوام...

مكتب جان في القصر الحكومي.. وإيلين تجلس إلى منضدة صغيرة ولوسيان واقفًا أمام المكتب، بينما جان يسير جيئة وذهابًا وفي يده مجموعة صحف يتكلم بصوت يجاهد في ترقيقه بلا جدوى لأن صوته يخرج رغم ذلك غاضبًا..

جان : لا يمكن يا صديقي أن يدوم هذا أكثر من ذلك. أنت تخرجني وتربكني. طلبت منك مائة مـــرة أن لا تخوض في هذه المسائل فلماذا تصر على الكتابة فيها؟

لوسيان : لأنـي أعتقد أنها صحيحة وضرورية.

جان : لم يحن وقتها... لم يحن أبدًا... ما زال أمامنـــا الكثير.

لوسيان : قول الحقيقة لا وقت له. إنه يحين في كل وقت. (يهز جان كتفيه بغيظ) كنت أثق فيك يا جـــان، وكان الكل يثق فيك، لكنا اليوم لم نعد نفهمك.. لم تؤمم صناعة البترول، ولم تجـــر انتخابـــات الجمعية التأسيسية، وكممت الصحافة، هل لهذا ثار الناس؟

جان : لو أجريت انتخابات الجمعية التأسيـــسية فـــأول قانون ستصدره سيكون قانون تـــأميم صـــناعة البترول.

لوسيان : وهذا ما يتمناه الشعب كله، فلماذا تؤجله؟

جان : لأننا سنتعرض لخطر الحرب لو أممناه.. التأميم سابق للأوان...

لوسيان : (بنفاد صبر) إجراء الانتخابات سابق لأوانه، والتأميم سابق لأوانه، وحرية الصحافة سابقة لأوانها! ما هذا؟ أتريد أن تحكم البلد رغمًا عنها؟

جان : ولما لا؟

لوسيان : في هذه الحالة لا تعول على تأييدي ومساندتي لك.

ويخرج لوسيان من المكتب بسرعة ويتأمله جان وهو خارج ثم يهز كتفيه ويتهالك على مقعده قائلاً لإيلين:

ألن يساعدني؟ هل يجب أن أفعل كل شيء وحدي؟ كنت أريده أن يشرح لهم..

إيلين : يشرح ماذا؟

جان : أنه سابق لأوانه أن...

إيلين : لكنك تعرف أنه لن يشرح شيئًا من هذا القبيل...

جان : أجل أعرف.. لكن ألست - بحق الله - الزعيم هنا؟

صحيفة الضياء...

آلات المطبعة تدور وأعداد الصحيفة تظهر الواحدة تلو الأخرى وتقرأ العناوين التالية بخط كبير...

- مشكلة البترول...
- متى تجرى الانتخابات؟
- البترول مرة أخرى..
- البترول والديمقراطية..

وبينما نرى الصحيفة تخرج أعدادها تباعًا نسمع صوت إيلين يقول:

ولم يستسلم لوسيان مما أغضب جان وأوغره عليه، لكنه لم يجرؤ على فعل شيء ضده.. فأقبل على الشراب من يومها...

مكتب جان...

نرى جان جالسًا إلى المكتب يطالع صحيفة الضياء زاعقًا على خادمه:

ويسكي..

ويجرع الويسكي الذي يقدمه الخادم تباعًا..

ثم نرى جان منتصبًا يصيح في الخادم: ويسكي.. ويحضر له الخادم ما يريد فيتجرعه، ثم نرى جان في أوضاع مختلفة ومناسبات مختلفة وهو دائمًا يطلب الويسكي ويؤتى له به فيتجرعه دفعة واحدة...

ثم نراه في الملابس الرسمية ينهض من مكتبه وكأسه في يده ويسير مباشرة مترنحًا قليلاً حتى مكتب إيلين فيتوقف ويضع كأسه عليه، لكنه لا يقول شيئًا، فتنتظر إيلين إليه محرجة فيقول جان:

تريدين كأسًا؟

إيلين : كلا.

جان : لماذا لا تشربين؟

إيلين : (في حزن ورقة وقلق) وأنت يا جان؟ لماذا تشرب؟

جان : (ضاحكًا في مرارة وخبث ثم يقول جادًا) لو استمر زوجك في حملاته الصحفية سأسجنه .. فاهمة؟

قاعة المحكمة..

ما تزال إيلين تدلي بشهادتها..

إيلين : واستمر لوسيان في حملته، وعندما أصدر جان قوانين الزراعة، كان لوسيان قد عاد من جولة له بالريف فعارضها بشدة وعنف..

شقة إيلين ولوسيان..

لوسيان جالسًا إلى مكتبه يكتب وإيلين تسير وتقف خلفه تقرأ من فوق كتفيه ما يكتب ثم تضع يدها على كتفه وتهزه قائلة:

لوسيان.. لا يمكن أن تنشر هذا الكلام..

لوسيان : ولماذا؟ إن القوانين التي أصدرها غير عادلة ولا يمكن أن تصدر إلا عن طاغية، ومن واجبنا أن نصارحه بهذه الحقيقة.

إيلين : وهل ستنشر هذا المقال؟

لوسيان : أجل في طبعة الغد.

إيلين : لكنه سيثير فتنة؟

لوسيان : في يده أن يوقفها.

تبتعد إيلين عن مكتب لوسيان وتسير في الحجـرة جيئـة وذهابًا، بينما لوسيان ينظر إليها في رقة ولوعـة.. وبعـدها يستأنف الكتابة من جديد.

إيلين : (متوقفة) أتذكر بنجا؟

لوسيان : أجل، لكن لماذا؟

إيلين : تسرعنا وقتلناه وكان بريئًا.

لوسيان : وما دخل بنجا في ما نحن فيه الآن.

إيلين : أقصد أنك تتسرع في الحكم على جـان مثلمـا تسرعنا في الحكم على بنجا، وربما كان لجـان أسبابه التي لا تعرفها أنت. أعطه فرصة...

ويغمض لوسيان عينيه ويهز كتفيه ويمزق الأوراق التـي كتبها..

لوسيان : وسوف أعطيه الفرصة، لكن لو ساءت الحال...

إيلين : افعل ما يحلو لك وقتها.

تقولها إيلين بصوت متعب لا مبالٍ..

إحدى القرى...

ترى بيتين يحترقان والجنود يسوقون أمامهم طابورًا طويلاً من الفلاحين مقبوض عليهم.. ونسمع صوت إيلين:

وساءت الحال...وساءت جدًا...

مكتب جان...

إيلين تكتب على مكتبها وجان كذلك، ويدخل الخادم متقدمًا لوسيان فترفع إيلين رأسها تنظر إليه نظرة يائسة، أما جان فلا يرفع رأسه. ويسير لوسيان قاطعًا الحجرة بخطوات بطيئة حتى يتوقف أمام جان الذي يرفع رأسه إليه تواضعًا..

جان : أتدري لماذا استدعيتك؟

لوسيان : أجل..

جان : لن تكتب هذه المقالات، ولن تلومني على الملأ على ما اتخذته من إجراءات تأديبية اضطررت إليها اضطرارًا.. تعلم أن صحيفتك هي الوحيدة

التي لا تمر على الرقابة لأنني أثق فيك، ولو نشرت هذا المقال فسوف أخسر المعركة وأنا دخلتها لا أعلم نتيجتها...

لكن لوسيان لا يرد عليه...

جان : (بعنف وهدوء) ألم تعد صديقي؟

لوسيان : إنني دائمًا صديقك. أتذكر لماذا انضممت إلى اللجنة؟ انضضمت لأوقفك في الوقت المناسب، حتى لا ترتكب عنفًا لا جدوى منه.

جان : إذن ناقشني وعاتبني وأوقفني لكن لا تكتب.

لوسيان : لقد قلت لك رأيي لكنك لا تريد أن تستمع إليه.

ينهض جان ويسير خطوات ثم يتوقف أمام إيلين...

جان : إيلين..

ترتجف إيلين لكنها تتماسك..

جان : إيلين.. قولي له.. قولي له ألا يقتل صداقتنا...

لكن إيلين تظل صامتة تنظر إليه في رقة وأسى..

جان : لماذا لا تتكلمين؟

إيلين : وماذا أقول؟ إنه سيفعل ما يراه صوابًا.

يسود الصمت ويخفض لوسيان رأسه ويسند يده على مكتب جان، ويقترب جان منه ويضع يده إلى جوار يد لوسيان..

جان : لوسيان.. تستطيع أن تعود إلى بيتك. لن تصدر صحيفتك غدًا.

لوسيان : افعل ما تشاء، لكن المقال سيظهر رغم ذلك، سيطبع سرًا..

جان : لوسيان لو فعلت ذلك..

لوسيان : لكني سأفعل وسيظهر المقال غدًا..

إيلين : (مذعورة وقد قامت إليه) لوسيان! جان! هل جننتما؟ وتقف بينهما وتنظر إلى اليدين الموضوعتين على المكتب، وفجأة ترى اليدين تتصافحان مثل ما فعلا يوم جلست بينهما على التل قبل أن ينضم لوسيان إلى اللجنة...

ثم يتلاشى المشهد بسرعة كالحلم وتعود اليدان مفترقتين وكل منهما قد تصلبت في مكانها على المكتب..

إيلين : لا يمكن.. لا يمكن.

وتمسك إيلين باليدين تحاول أن تجمعهما، لكن جان يسألها...

جان : هل سينشر مقاله؟

لكن لوسيان يستمر صامتًا فيزيح جان يده بعنف...

جان : إذن.. فهو يعرف ما ينتظره.

ويستدير لوسيان راحلاً عن الحجرة وتحاول إيلين أن تلحق به مسرعة لكن جان يقول بخشونة:

ابقي هنا.. أنت لا زلت سكرتيرتي كما أظن؟

وتعود إيلين متهالكة على مقعدها بينما يعود جان إلى مكانه ويصرخ في خادمه:

ويسكي...

أحد الكهوف...

ولوسيان مع أربعة رجال يطبع صحيفة من القطع الصغير على مطبعة يدوية، ونرى اسم الصحيفة فإذا هو "الضياء"، ونقرأ المانشيت العريض...

الطاغية يحرق عشر قرى

الشارع أمام بيت إيلين...

نرى أعدادًا من صحيفة الضياء السرية قد تناثرت على الرصيف، وشرطيان يمسكان بالرجل الذي كان يوزعها وينهالان عليه ضربًا. وتشهد إيلين الحادث وهي خارجة من بيتها متوجهة إلى عملها في القصر الحكومي، وفي الطريق تصادف رجلاً آخر يوزع الصحيفة ورجال الشرطة يكادون أن يقبضوا عليه لكنه يطلق لساقيه العنان...

قاعة الانتظار في القصر...

تعبرها إيلين لتدخل مكتب جان وأثناء عبورها ترى الخدم يخفون الصحيفة وكانوا يطالعونها...

مكتب جان...

جان جالسًا إلى مكتبه وإيلين تدخل وتتجه إلى مكانها...

إيلين : صباح الخير يا جان...

جان : صباح الخير...

ويسترسل جان في الكتابة غير عابئ، وإيلين ترتب أوراقها

على الآلة الكاتبة تحاول أن تقرأها، ومن آن إلى آخر تلتفت بنظرة قلقة إلى جان الذي يواصل الكتابة دون أن يرفع رأسه... وتعود إيلين إلى القراءة، لكن جان يقول لها فجأة:

إيلين...

ترفع رأسها فتراه لا يزال يكتب.. لكنه يضيف:

سأقابل رئيس اللجنة الزراعية عند الظهر وأريد

تقرير هودريك.

ولا تجيب إيلين وتهز رأسها ويسود الصمت ويحتسي جان كأسه ثم يضعه بعنف فتفزع إيلين وتقف فجأة..

إيلين : جان!

ويرفع جان رأسه مستطلعًا فيدخل أحد الحجاب...

الحاجب : صاحبا المعالي الوزيران داريو ومانيان...

ويدخل داريو ومانيان ويجلسان أمام المكتب وتجلس إيلين من جديد تنظر إلى بندول الساعة الذي يشير إلى العاشرة، ثم تختفي العقارب وتغيم الدنيا يغطيها السواد وتحجب الساعة ونسمع أصوات جان ومانيان وداريو مختلطة ببعضها وبرنين الأجراس الذي يقوى فتتقشع الغمامة منفجرة بصوت مدو

وترتمي إيلين على مكتبها ورأسها بين يديها بينما جان ينهض زاعقًا...

جان : إيلين!

ويجري إليها ويشير إلى داريو ومانيان لكي يخرجا..

جان : ارجعا الساعة الثانية...

ثم يمسك إيلين من كتفيها ويقيمها فتنظر إليه محدقة وتسأله..

إيلين : جان قرأت المقال طبعًا؟

فلا يجيبها جان لكن يظهر عليه الألم وتستمر إيلين..

إيلين : وماذا ستصنع بلوسيان؟ إذا سجنته فلن يرجعه السجن عن آرائه، وسينقطع ما بينكما للأبد...
تكلم... ماذا ستصنع به؟ أجب؟ أجب؟

لكن جان يصمت ويبدو عليه التعب.. وتفهم إيلين فتصرخ باكية...

إيلين : طاغية... قاتل... إني أكرهك!

وتنهض خارجة ركضًا...

قاعة المحكمة...

نرى إيلين صامتة وقد أوجعتها الذكرى وامتقع وجهها... لكنها تستأنف شهادتها...

إيلين : ومرت سنة لم أشهد فيها جان ولم يحاول هو أن يراني، ولم أستطع أن أعرف أين ألقى بلوسيان الذي قلبت الأرض بحثًا عنه، لكن عبثًا حتى أعيتني الحيلة سنة كاملة. وذات مساء..

شقة إيلين...

تعود إيلين منهكة لكنها تجد سيارة جان البيضاء الكبيرة تقف أمام باب البيت فتدهش وتصعد السلم بسرعة وتدخل شقتها لتجد جان يقف وسط الصالون ينظر إليها ببرود والأسى العميق يلفه.

إيلين : لماذا قدمت؟ إنك تخيفني...

جان : (بعد فترة صمت) لوسيان يموت...

وتستند إيلين إلى ظهر مقعد...

جان : سيارتي تحت... خذيها واذهبي إلى المستشفى..

(متردداً) هل آتي معك؟

تتماسك إيلين ويتصلب وجهها وتمر أمام جان ولا ترد وتخرج هابطة السلم ثم تركب السيارة...

في المستشفى..

تسير إحدى الممرضات أمام إيلين في دهليز طويل تقطعه إيلين بخطوات متثاقلة كالنائمة، وتفتح الممرضة باب غرفة لوسيان..

لوسيان نائماً يتنفس بصعوبة مغلق العينين. وتقترب إيلين وتأخذ بيده فيفتح عينيه ويقول بصوت ضعيف:

أهذا أنت؟ أنت جان؟

وتهز إيلين رأسها بالنفي فيطبق عينيه...

قاعة المحكمة..

إيلين : وتوفي في الساعة الخامسة صباحاً.. (تصمت لبرهة) هذا هو كل ما أعرفه قدمته لكم.

تتطلع الجماهير لإيلين بعطف فتستدير وتهم بمغادرة القاعة وتفسح لها الجماهير الطريق لكن جان يناديها فتتوقف..

جان : إيلين!

وتستدير إيلين..

جان : إيلين.. ابقي..

تتردد ثم تعود إلى المحلفين فينهض جان..

جان : إني سأ...

لكن فرانسوا يشير إليه بيده مقاطعا بينما يستمع لأحد جنود الثورة الذي يهمس في أذنه بكلام...

فرانسوا: أين؟

الجندي : في دار البلدية.

فرانسوا: ومن؟

الجندي : ممثلو النقابات وكل جنود الثورة، وجاءت وفودهم تطلب مقابلتك فورًا.

فرانسوا: حسن.

ثم يستدير إلى الباب ويعلن...

فرانسوا: لقد انتخبني الآن ممثلو الشعب المؤقتون- أعني ممثلي النقابات وأفراد الشعب المسلحين -

انتخبوني رئيسًا للحكومة...

وتهلل الجماهير هاتفين فيرفع فرانسوا يده معيدًا السكون...

فرانسوا : سأواصل هذه المحاكمة حتى النهاية، وسأمثل الاتهام بوصفي رئيس المحكمة المنتخب... لكني مضطر الآن إلى تأجيل الجلسة حتى الساعة الحادية عشر ليلاً..

ويبدأ الهتاف والتصفيق من جديد ويهم البعض بالخروج، ويخرج فرانسوا من الباب الخلفي ويحيط بعض الثوار بجان ويخرجون به من القاعة...

ينظر جان مقبوضًا عليه إلى إيلين التي تغادر القاعة في نفس وقت خروج جان...

مكتب جان في القصر...

يدخل فرانسوا بخطوات مترددة إلى المكتب الضخم ويستطلع ما حوله بنفس استحياء جان السابق، ثم يتوجه إلى المقعد ويجلس عليه والخادم يجره له باحترام فيضحك فرانسوا ضحكة قصيرة...

فرانسوا: ها أنت مرة أخرى.. حسن اذهب وأدخل الوفود

لكن لا تدخلهم كلهم معًا..

ينحني الخادم ويسير إلى الباب الذي تسمع خلفه ضجة كبرى ويخرج ليدخل من جديد وقد امتنعت الضجة وليعلن...

الخادم : وفد عمال مصانع صهر الحديد...

ينهض فرانسوا شاحبًا مضطربًا ويدخل الوفد ويقف أفراده في نصف دائرة أمام المكتب الكبير..

وفي خارج القصر يتجمهر الناس هاتفين مهللين...

ويجلس فرانسوا محدثًا ممثلي الشعب...

فرانسوا: أكرر عليكم أن سياستنا ستكون السياسة التي تطالبون بها، أعني السياسة الواجبة والتي تنص على وقف كل أعمال الإرهاب، وإطلاق سراح المسجونين السياسيين، وإلغاء الأحكام العرفية في الريف، وإطلاق حرية الصحافة، ودعوة البلاد إلى الاقتراع لانتخاب الجمعية التأسيسية. وأعرف أنكم تطالبوني بإصدار بيان عن سياستنا بشأن البترول والصناعات الأخرى غير المؤممة. وسوف أذيع خطابًا بالراديو في منتصف الليل

أضمنه كل ذلك، وأؤكد لكم أن دم الثوار لن يهدر عبثًا في أي من هذه المطالب.

لكن خادمه يدخل عليه ويهمس له بكلام في أذنه فيقول في دهشة..

فرانسوا: فلينتظر..

لكن خادمه يهمس من جديد فتبدو عليه الدهشة من جديد ويتصلب وجهه فينهض ويقول..

فرانسوا: إذن حسن.. (لممثلي عمال الحديد) ابدؤوا يا رفاق عملكم بأسرع ما يمكن لأن في ذلك مصلحتنا جميعًا..

ويجيبهم بإشارة من يده وينسحبون، ويدخل الخادم من باب آخر شولشر، يرافقه رجل أنيق متألق الوجه في الخمسين له شخصية معتدة... ينحني شولشر لفرانسوا...

شولشر : أنا شولشر رئيس مجموعة شركات البترول..

فرانسوا: إنك شجاع فعلاً أن تشق الشوارع وأنت تعلم أن كثيرين يتمنون القضاء عليك.

شولشر : (مبتسمًا) إني أعرف كيف أدافع عن نفسي.

(يشير إلى مرافقه) أقدم لك السيد كــوت ســفير دولتنا.

السفير : (يبادله التحية ويخطو إليه خطوة) لم أشأ انتظار الإعلان الرسمي لتأليف حكومتكم الجديدة فجئت إليكم أؤكد لفخامتكم أن حكومة بلادي قد دللــت دائمًا على أنها يهمها جدًا أن تعيش متفاهمة مــع حكومة بلادكم، وإني لأرغب أن أبلغ حكــومتي بأسرع ما يمكن جوابكم على هذا السؤال: هــل صحيح أن من بين التهم الموجهة إلى جان آجيرا تهمة عدم تأميمه لصناعة البترول؟

فرانسوا: صحيح..

السفير : هل نرى في هذه التهمة دلــيلاً علــى اتجاهــات السياسة المقبلة لحكومتكم بشأن موضوع البترول؟

فرانسوا: (وقد أثير) إن محاكمة جان آجيرا مسألة داخليــة بحتة، أما السياسة التي تنوي حكومتي اتخاذهــا فستعلمون بها مثل مواطنينا عن طريــق البيــان

الذي سأذيعه على الأمة عند منتصف الليل.

السفير : لكن متى ترون إعادة المواصلات اللاسلكية مع الخارج؟

فرانسوا: آمل أن تكون قد عادت الآن.

السفير : في هذه الحالة سأتصل بحكومتي وسوف أضطر إلى أن أستأذن فخامتكم في مقابلة أخرى قبل أن تلقوا بيانكم.

ويضغط السفير على "فخامتكم" ثم ينحني وينحني شولشر ويرافقهما فرانسوا حتى الباب وينادي أحد الحراس...

فرانسوا: ثلاث سيارات وخمسة عشر رجلاً مسلحًا ليرافقوا صاحب الفخامة إلى السفارة.

ويهز الرجلان رأسيهما شاكرين لكنه لا يرد عليهما ويتبعهما بنظرة ووجه جامد قلق..

حول قاعة المحكمة...

الجماهير تنتظر في الدهاليز والقاعات المجاورة، بعضهم ممد نائمًا على الأرض أو مستندًا إلى جدار، ونرى رجلاً

ناعسًا واقفًا مستندًا إلى بندقيته ومن حين إلى آخر يختل توازنه فيكاد يسقط، وآخرون يأكلون أو يتناقشون جالسين على الأرض. ويفتح باب قاعة المحكمة فيتدافع الجمهور داخلاً ليجدوا لأنفسهم أماكن ويستيقظ النائمون ويجرون إلى القاعة متعثرين بالذين لا يزالون نيامًا.

قاعة المحكمة...

جان يعود إلى مكانه، والقاعة تمتلئ بالناس الذين يحدثون ضجة هائلة، والمحلفون يعودون إلى أماكنهم متعبين منقبضين وقد تكرمشت ملابسهم وطالت لحاهم، ويعود فرانسوا إلى مكانه حليق الذقن منتعشًا نشيطًا، وتجلس إيلين وسط مكان الشهود بحذاء مقاعد الصف الأول، ثم ينهض فرانسوا فتصمت القاعة...

فرانسوا: الكلمة للدفاع..

جان : (ناهضًا) أنا محامي نفسي، وسأدافع عن نفسي بنفسي. يسير حتى مكان الشهود ويبقى هناك طوال المرافعة قريبًا من فرانسوا وإيلين...

جان : (إلى المحلفين) كان من حسن حظكم أنكم

انتصرتم، لكن ليس معنى ذلك أني ملزم بتقديم كشف حساب لكم، أو أني آسف على شيء. (إلى إيلين) لكن لك ودك يا إيلين أقدم كشف حسابي. لقد أحببت لوسيان حبًا لن تستطيعي أن تدركي مداه.

إيلين : (في استغراب) إذن لماذا تسببت في موته؟

جان : أجل أنا المتسبب في موته مثلما تسببت في موت آخرين غيره.. (إلى المحلفين) وها هم أولاء قد قاموا بثورتهم ويريدون قتلي ولكم يسعدني أن يقتلوني! فقد ثقل عليّ حمل حياتي.. ومع ذلك فلست نادمًا على شيء.. لا مقتل بنجا، ولا على موت لوسيان، ولا على القرى التي أحرقت، ولو عدت وكانت لي نفس الظروف لفعلت نفس الشيء مرة أخرى..

وتحس الجماهير بأن جان يتحداها فتبدأ تصفر وتضج، ويزداد جان نهوضًا بقامته متطلعًا إلى القاعة بنظرات حادة...

جان : أجل لست نادمًا على شـيء، ولا حتـى علـى لوسيان..

ويزداد الصفير والاستهجان وفرانسوا يطلب منهم السكون، لكن جان يستمر ويعلو صوته حتى ليفرض نفسه على الناس فتضمحل الضجة حتى تخمد أخيرًا ونسمعه يقول..

جان : أيها المغفلون الغلابى، تظنون أنكـم سـتغيرون السياسة لكن كل ما ستحصلون عليه هو اسـتبدال أشخاص بأشخاص.. (يشير إلى فرانسوا الذي عاد إلى مقعده) وأنت.. أنت ستسير على نفس سياستي لأنه لا سياسة أخرى هناك لتسير عليهـا.. هـل كنت تتصور أني سأقول لك لماذا فعلـت كيـت وكيت؟ كلا، إنما أنت الذي ستقول لنا لماذا فعلـت كيت وكيت، وستجد الأعذار لسياستك خلال ثلاثة أو ستة أشهر من حكمك.. (إلى إيلين وقـد سـاد الـصمت القاعـة صـمت مطبـق) إنهـا قضية العنف قضية الطغيان.. كانت أعمال العنف

منتشرة في كل مكان في البداية، وكنت أنا خارج ذاتي متأثرًا بما يجري فلم أنس أن جدي كان قرصانًا عنيفًا، ووالدي ضرب رجلاً بمدراته حتى قتله، ولم أنس ما كنت أشاهده في القرية والفلاحون السكارى يضربون أطفالهم ونساءهم. وأنا بعد فلاح وفلاح عنيف مثلهم جميعًا، ولكن ذراعي انكسرت وأنا في الثانية عشرة، داستها نعال الصبيان وكنا نتشاجر. وقد أرعبني العنف من يومها، فهاجرت إلى المدينة عندما حانت لي فرصة الهجرة، وفي المدينة لم أجد إلا العنف من جديد.

شهادة جان عن فترة ما قبل ثلاثة عشر عامًا..

حي الفقراء، شارع صغير فيه، وطابور من النساء أمام محل بقالة، ووجوههن ضامرة هزيلة حاقدة، وبعض الرجال من بينهم جان يرتدي عفريتة عمال قديمة وقبعة بالية مسترخية من طول الاستعمال. ونسمع صوت جان يدوي: عنف! بؤس..

ويسقط المطر وتنتشر المظلات فوق الرؤوس، وجان يرفع ياقة بدلته إلى أعلى، والنسوة يعقدن شيلانهن حول رؤوسهن. ووراء جان امرأة تحمل طفلاً رضيعًا تنحني عليه تحميه من المطـــر، فيلامس جان كتفيها ويشير إليها أن تعطيه الطفل ويفتح جاكتـــة بدلته ويدخل الطفل إلى صدره تحت الجاكتة. وفي هذه اللحظة يظهر البقال على عتبة المحل ويهز قبضة يده ويعلق على الباب ورقة كتب عليها هذا الكلام "لم يعد هناك ما يباع".

وتخرس ألسنة الناس للحظة ثم تصيح امرأة مغضبة...

المرأة : يا للقذارة! يا للقذارة! يهزأ بنا في قوتنا! فلنقتسم كهفه ولنرحل لم يعد لديه شيء يبيعه صحيح!

ويبدأ الطابور يصيح .. قذر .. خسيس .. غشاش .. ثـــم ينفرط الطابور ويسيرون كلهم إلى الباب في هـــرج وتهديـــد، ويطلق أحدهم طوبة تحطم الزجاج فنرى خلفه وجـــه البقـــال مفزوعًا. وفجأة تصل الشرطة وهم يعدون ويصفرون حـــاملين العصي في أيديهم يحاولون بها تفريـــق النـــاس لكـــن النـــاس يقاومون فتنقلب الشرطة إلى استخدام العنف، يركلـــون النـــاس ويلكمونهم بأرجلهم وأيديهم كيفما اتفق ويـــرون امـــرأة علـــى الأرض. ويهجم شرطي على جان وعصاه مرفوعة في الهواء

لكن جان يتحاشاها ثم يهرب ويلف عند الناصية ويتوقف والطفل يضمه إلى صدره بيده اليسرى ويعود إلى الشارع فيرى أم الطفل تقاوم شرطيين يجرانها في قسوة فيتجه إليهم مشيرًا إلى الطفل..

جان : إنه طفلها.

وينظر أحد الشرطيين إلى الطفل مندهشًا ويسأل الأم وما تزال تقاوم..

الشرطي : أهذا لك؟

الأم : إنه ابني .. ابني.

وعندما يسمع ذلك يمسك الطفل بيده اليسرى كما لو كان يرفع بقجة وبيده اليمنى يجر المرأة مع زميله، بينما يرقبهم جان دون حركة وهو واقف وسط الشارع، ونسمع صوته يصرخ..

جان : عنف شقاء وبؤس ومجاعة.. شقاء وبؤس في كل مكان.. في كل شارع. الفقراء الغلابى يصرخون أمام الدكاكين.. والاستياء يعم كل مكان وينتشر كالنار.. وهنا يتحرك الأغنياء

ليحدوا من غضب الناس، مستخدمين وسائلهم الكبرى..

شارع آخر...

نرى على أحد الجدران صورة تمثل منظرًا هزليًا ليهودي بأنفه المحدودب ويديه المعروقتين كالمخالب ونقرأ تحت الصورة.

إنه اليهودي الذي يسبب شقاءك.

ونسمع صوت جان يقول: لم أعد أستطيع أن أطيقه... لم أعد أستطيع أن أتحمله..

ثم نرى جان يسير في شارع بائس ويمر على رجل هرم غلبان يلبس أقذر ملابس متآكلة ممزقة ويمشي منحنيًا على عصاه...

ونرى أمام محل مغلق طفلة تنتظر حاملة رضيعًا هزيلاً غاية الهزال وعلى الناصية صبي أعرج يلعب وساقه العرجاء موضوعة في جهاز يمنع ثنيها، ثم نسمع صوت جان يردد في قوة.. عنف وبؤس!

ويتطلع جان إلى الطفل لحظة ثم تغيم عيناه ويجري يأسًا. إنه في حلم وهو يرى نفسه يجري في الحلم ويصل إلى شارع من شوارع الأحياء الراقية وتمر أمامه سيارة أنيقة يتقدمها الحرس من راكبي الموتوسيكلات، والسيارة هي سيارة الوصي على العرش...

ويخرج جان مسدسه من جيبه ويطلق النار على الوصي الذي يسقط ويهجم الحرس على جان فيلقي عليهم قنبلة يدوية. ثم نسمع صوت جان وسط ذلك كله يقول بقوة.. بؤس وعنف! لم أكن أرى غير العنف سلاحًا ضد العنف...

ويتلاشى الحلم ويجد جان نفسه في الشارع أمام الطفل الأعرج يتأمله وهو يلعب بالكرة، ثم يسير في طريقه حتى يدخل بيتًا، ونسمع صوته يقول: وفي هذه الفترة انضممت إلى إحدى المنظمات السرية..

بعد أيام...

نفس الشارع وأمام نفس البيت نرى جان وثلاثة عمال أقوياء يتأملون صورة اليهودي ثم يسمعون فجأة من يقول: الموت لليهود.

ونرى على مبعدة قليلة منهم صيدلية عليها لوحة مكتوب عليها "إيلي كوهين" ونرى جماعة من الرجال والنساء يتظاهرون أمام الصيدلية هاتفين: غشاش.. يهودي قذر.. غشاش. ويبدو واضحًا أن بينهم بعض محترفي التحريض. تدخل الجماعة كلها الصيدلية ويجرون صاحبها اليهودي الذي يصفر رعبًا، ويتقاذفونه فيما بينهم، وفجأة يحول بينهم وبين الرجل شاب أنيق هو لوسيان، يقف ويداه في جيبه ويقول لهم آمرًا: لا تمسوا هذا الرجل.. فيجيبه أحد الواقفين باستهزاء.. وهل أنت الذي ستمنعنا؟

لوسيان : أجل سأمنعكم لكن ليس بالقوة بل الإقناع. أيها الرفاق لا تكونوا ضحية خداع يستغله غيركم، فهذا الرجل وأنتم ضحية، وهو يعاني ما تعانونه، وهو شقي مثلكم. أما المستفيدون الحقيقيون فهؤلاء يصرفونكم عنهم بتحويل غضبكم إليه...

وعندها يترك اثنان من المحرضين المحترفين الثلاثة اليهودي ويتجهون إلى لوسيان مهددين..

أحدهما : هل انتهيت؟

لوسيان : كلا لم أنته.. اسمعوا أيها الرفاق..

لكن المحرض يضرب لوسيان بقبضته في المعدة فينحني لوسيان على نفسه لكنه لا يدافع بل يقف من جديد ويضيف..

لوسيان : أيها الرفاق، ليس صحيحًا أن هناك يهودًا وآربين، إنما هناك فقراء ومستغلون..

ويسدد الرجل للوسيان لكمة في وجهه فيقول لوسيان وهو يستقبل اللكمة:

لن أدافع عن نفسي...

ويتشاور جان ورفاقه الثلاثة بالنظرات ثم يهجمون بسرعة، ويلقون بالمحرضين الثلاثة أرضًا، ويحاول بعض آخر من الجمهور أن يساعد المحرضين الثلاثة فيندلع شجار يقطعه طلق ناري فجأة يسقط على أثره اليهودي قتيلاً... وعندها يهرب الناس في هرج ورعب ودهشة، لكن لوسيان ينحني على القتيل ويرفعه فيقول له جان:

انتهى أمره...

لوسيان : ما كان لكم أن تضربوهم...

جان : كيف؟ لو لم نتدخل لانتهوا منكم أنت أيضًا؟

لوسيان : بسببك أطلقوا النار. لو لم تتدخل لما استثرتهم. العنف يولد عنفاً.

جان : (في جمود لكن باهتمام، فقد أثار لوسيان اهتمامه) هل ننقله إلى صيدلية؟

ويحملان الجثة بينما نسمع صوت جان يقول في قوة: ومن ذلك اليوم صار لوسيان صديقي...

أحد الطرق...

نرى جان ولوسيان يتنزهان ونسمع صوت جان يردد.. كان صديقي وأخي ولكنه لم يكن مثلي..

يتوقف لوسيان ليواصل مناقشته..

لوسيان : الشرط الأول لتكون إنساناً هو أن ترفض الاشتراك بشكل مباشر أو غير مباشر في أي عمل من أعمال العنف.

جان : (بتعالٍ ناشئ من قلة تجربة لوسيان لكن بإعجاب به كصديق) لكن كيف تدفع العنف إن لم تدفعه بالعنف؟

إذا ألغيت العنف كوسيلة مقاومة فماذا يتبقى لك؟

لوسيان : كل الوسائل.. بالكتب.. بالصحف.. بالمسرح..

جان : هذا تفكير بورجوازي. إنـــك بورجـــوازي يـــا لوسيان فأبوك لم يضرب أمك أبدًا، ولم تـــسلخ الشرطة جسده من الضرب، ولم يـــسرح مـــع العمال دون ســـبب أو إخطـــار ســـابق إلا لأن المصنع يريد تخفيض عدد عماله. إنك لم تعان العنف ولم تتعرض له فلا تستطيع أن تحس به كما نحس نحن به.

لوسيان : لكن تعرضك له ومعاناتك منه يجب أن تكـــون سببًا يدعوك إلى كراهيته؟

جان : صحيح.. لكني مع ذلك لا أستطيع لأن العنـــف صار مني، دخل كياني وصار جزءًا منه...

غرفة المحكمة....

جان : (إلى إيلين) وعندما تعرفت بك أحسست بعنفي في الحال، وكان يخيفك، أليس كذلك؟

ولا ترد إيلين فيلح عليها..

جان : قوليها.. اعترفي أن عنفي كان يرعبك..

إيلين : (مترددة لكنها تقول في صوت خفيض) كنت أعتقد أني كنت أخافك..

يتبادلان النظرات وينحسران بعالميهما كل في الآخر فلا يعود هناك غيرهما في القاعة...

إيلين : لم تكن تفزعني، إنما كنت تثير كبريائي... كبرياء الأنثى المفعمة بالحياة.. كنت أحب قوتك ولكني رفضت الاستسلام..

جان : وأحببتك من أول يوم... أحببتك أكثر من نفسي، وأعطيتك للوسيان لأني كنت أحبه كأخي.. وليتك تعرفين ماذا كان يجري في خاطري ليلة زفافكما.

منزعة مع سوزان...

نرى جان وسوزان واقفين إلى جوار السلم وقد انحنت سوزان تضمد يد جان المجروحة، بينما جان ينظر صوب السلم

الذي صعدت منه إيلين ولوسيان، وفجأة تضطرب عيناه ويبدأ حلمًا من أحلام اليقظة.

إنه يدفع سوزان عنه ويتناول سكينًا من فوق المنضدة ويصعد السلم ويفتح باب غرفة لوسيان وإيلين، فيرى لوسيان منحنيًا على إيلين الممددة فوق السرير يعانقها وترتفع ذراع جان المجروحة تحمل السكين ليهوى بها على لوسيان، وعند ذلك يتلاشى الحلم ويرى جان نفسه ما يزال تضمد له سوزان جرحه وهي تتأمله بوله وحب... ثم يدير جان عينيه من على السلم وينظر إلى سوزان فيحس عندئذ فقط بوجودها...

ونسمع صوته يقول: كانت إلى جواري امرأة.. مجرد أنثى... ثم ينحني جان فوق سوزان يعانقها بوحشية...

غرفة المحكمة...

جان وإيلين ما يزالان متقابلين متناظرين، وسرعان ما تخفض إيلين عينيها وتتشاغل باللعب بثنيات ثوبها بينما ينتصب جان ويسير جيئة وذهابًا وهو يتكلم، لكنا لا نعلم من يخاطب، المحلفين؟ أم نفسه؟ أم الجماهير؟ لأنه لم يكن يتطلع إلى أحد وحديثه يتدفق منه.

جان : وعرفت أيامها ما يجب عليّ أن أفعله، كان

مستغلو البترول أقوياء... وكانت وراءهم دولة كبرى تقف في مواجهة دولتنا الصغيرة، وأيامها أدركت أن الذي يهاجمهم لا يجب أن يهاجمهم مباشرة، بل عليه أن ينتظر، فحالة البلاد تهيئ للثورة، وعليه أن يبقيها كذلك إلى أن تتهيأ الفرصة لإشعالها، ويحين يوم تصفية الحساب.. وكانت يداي طاهرتين في الأول، طاهرتان مثلما كانت يدا لوسيان طاهرتين، ولم أكن سعيدًا إنما كنت أحس بنفسي قويًا ونظيفًا... إلى أن كان اليوم الذي جئت إليّ فيه تدقين على بابي.

شقة سوزان...

جان منهمكًا في غرفة الغسيل ويدق الباب ويسمع من الحجرة الأخرى نقاشًا حادًا بين سوزان وامرأة أخرى فينهض عندما يسمع سوزان تقول.. "قلت لك إنه ليس وحده" فيفتح جان الباب ويرى إيلين وسوزان وجهًا لوجه، وقد احتدم وجه سوزان كرهًا واضطربت إيلين، فيقول مخاطبًا سوزان بلوم:

ماذا جرى يا سوزان؟ تعلمين أن لا أحد عنـــدي، وأني دائمًا موجود ما دامت إيلـــين هـــي التـــي تطلبني..

سوزان: أجل، ما دامت إيلين هي التي تطلبك طبعًا..

جان : (يبدو غاضبًا لكنه يهدأ) إيلين أو أي عضو مـــن أعضاء اللجنة... تعالي يا إيلين...

ويفتح الباب أكثر لتدخل إيلين وتتحرك سوزان لتلحق بهما لكنه يوقفها ويقول لإيلين:

جان : تريدينني طبعًا يا إيلين لمناقشة شؤون اللجنة؟

إيلين : أجل.

جان : (معتذر لسوزان) آسف يجب أن تتركينا وحدنا.

فتغلق سوزان عليهما الباب بنفسها غاضبة ولا تقول شيئًا. أما جان فيقبل على إيلين البادية الاضطراب بشكل ملفت...

جان : ماذا جرى؟

ولكنها لا تجيب فيمسكها من كتفيها ويهزها..

جان : قولي ماذا جرى؟

إيلين : أين بنجا؟

جان : (يرتد مذعورًا) بنجا؟

إيلين : أجل أين هو؟

ولا يجيبها جان لكنه يتجه إلى الباب ويفتحه فجـــأة فيجـــد سوزان خلفه تسترق السمع من ثقب المفتاح. وتتراجع سوزان وهي تتطلع بحقد إلى جان الذي يغلق الباب بعنف ويعود إلى إيلين..

جان : بنجا؟ هل لوسيان الذي أرسلك؟

إيلين : كلا.

ويتطلع إلى حقيبة يدها التي كانت تتلهى بها ويقول...

جان : إذن فهو ليس لوسيان.. (ثم فجأة) أعطني حقيبتك؟

إيلين : كلا لن أفعل.

ويستولى على الحقيبة بالقوة ويخرج منها مسدسًا ملفوفًـــا بقطعة قماش ويتنفس في ارتياح...

جان : آه... إذن فلوسيان لا يريد أن يقتل بنجا؟

إيلين : جان.. لوسيان لم يتراجع لأنه جبان..

جان : (بمرارة) لا يريد أن يوسخ يديه، أما أنـــت فـــلا

يهمك.

إيلين : أجل لا يهمني. (وتخفض رأسها) إننا واحد أنا وهو.

جان : (يلوي فمه ويبسط قطعة القماش يتأمل المسدس بضحكة مبتسرة) لكن هذا المسدس لعبة... ما الذي ستصنعين به؟

إيلين : قل لي فقط أين بنجا. هذا كل ما أطلبه.

يتجه جان نحو المنضدة ويضع المسدس عليها ثم يرجع إلى إيلين مبتسمًا بمرارة..

جان : هل تعتقدين أن القتل سهل؟ (لا تجيب) ثم لو قتلتيه أتظنين أنك وهو ستظلان واحدًا، أنت هو وهو أنت؟ (ينظر إليها بألم ويقول همسًا وبيأس) لماذا أنا؟ لماذا أنا دائمًا؟ أليس من حقي كذلك أن تظل يداي نظيفتين؟ إنني لا أريد... لا أريد أن أقتل أحدًا.. إنه واجبه. هو الذي كلف به... (ينتفض ويقترب منها ويقول برقة) إيلين، هذه

قضية رجال، ثم أن المسألة ستكون خطيرة لــو خابت طلقتك وأخطأت الهدف...

إيلين : لن أخطئ.

جان : قد تخونك أعصابك. ثم أظن أنه مــن حقــي أن أمنعك...

ويبتسم لإيلين ولكنا نسمع صوته من غير أن يتكلم هــو.. وهو يقول: لا أريد أن أقتل.. أكره العنف، لا أريد، لا أريد!

ويضع جان يده على كتف إيلين..

جان : عودي إلى بيتك الآن.

إيلين : هل ستذهب؟

جان : (باسطًا يديه) إن يديَّ متسختان.. اتــسختا قبــل ذلك..

إيلين : ستقتله من أجلي.. ستقتله من أجلي يا جان؟

وتنظر إليه بانفعال وتقترب منه ويهمان بالعناق لكن جان يغضب على نفسه ويزوغ..

جان : كلا.. بل من أجل لوسيان...

غرفة المحكمة...

جان : (مخاطبًا إيلين) كانت المهمة أقسى مما ظننت، فقد كان بنجا في اجتماع سري وكـان سـيعود مـن طريق مقفر فوقفت أنتظره.

طريق خلوي...

الطريق خالٍ وجان واقفًا مستندًا إلى شجرة فيسمع من بعيد صفيرًا مرحًا مقتربًا، ويعتدل جان ويمعن النظر في الشخص المقبل.. إنه بنجا..

ونسمع صوت جان...

جان : كان أسلم لو أني قتلته دون أن يراني، لكني أردت أن أكلمه أولاً قبل أن أطلق عليه النار...

يتقدم بنجا هادئًا وهو يصفر وعندما يقترب من الـشجرة يخرج إليه جان فيتوقف بنجا..

بنجا : من هناك؟ (ويصوب ضوء مصباحه نحو جـان) أهذا أنت يا جان؟ أرعبتني. حسبتك الشرطة تكمن لي.

(ثم يستأنف سيره ويلحق به جان) أأنت عائد إلى المدينة؟

(فلا يرد جان) ماذا بك؟

جان : بنجا إنك واشٍ خائن... أسلمت كادلييه للشرطة.

يتوقف بنجا ويتطلع إلى جان بدهشة ويتوقف جان فيرى بنجا المسدس في يده فترتسم على ملامحه مشاعر الارتياح ويزفر قائلاً لجان الذي يتأمله بدهشة...

بنجا : إذن فهذه هي الحكاية! من ثلاثة أشهر أشعر بأنكم ترتابون في. ثلاثة أشهر وأنتم تلاحقونني، وأنا لا أفهم، لكني اليوم فهمت وسينتهي كل شيء.

اسمع... أنا لست واشيًا خائنًا وأقسم لك برأس زوجتي وأطفالي.

جان : اثبت لي ذلك..

بنجا : كيف؟

يتطلع في وجه جان فيدرك أنه قاتله.. فيضيف..

- لقد عشت للجنة وحدها، ومع ذلك فهاكم اليوم

تحكمون عليّ دون أن تسمعوني.. حسن.. افعل ما تريد.

ويبدو على جان العجز عن الجواب ووجهه قد اختلط فيه الألم بالعجز بالرقة..

بنجا : افرح أيها القذر فلن أعوقك بعد الآن...

ويرفع جان مسدسه ... فيضيف بنجا..

- أنت مدبر كل ذلك؟ ولكي تنهي الرواية حرصت على أن تقتلني أنت نفسك؟

ولا يجيبه جان وإنما يطلق النار مرتين فينحني بنجا لكنه لا يسقط وإنما يقول ساخرًا:

- أيها المجرم.. صدقني إني لا أحب أن أكون مكانك عندما تعلم أني كنت بريئًا..

ويطلق جان رصاصة أخرى فيسقط بنجا ويتمدد وجان يتأمله جثة طريحة عند قدميه...

قاعة المحكمة...

جان أمام إيلين يتمعن بين قدميه ونسمع صوته يقول:

- وبعد شهر علمنا أن بنجا كان بريئًا...

شقة لوسيان وإيلين...

لوسيان جالسًا عابسًا وجان أمامه صامتًا حزينًا.. ثم تمتد يد جان إلى كتف لوسيان الذي يزيحها فينظر إليـــه جـــان بلـــوم وألم...

جان : هل أخيفك يا لوسيان؟

لوسيان : يداك ملطختان بالدم.

جان : صحيح أن يديّ ملطختان بالدم. ولكني لطختهما لأجنبك تلطيخ يديك. تظن أني ما كنت أنا أيضًا أحب أن أحتفظ بيدي نظفتين؟

لوسيان : أنا لم أطلب إليك ألا تفعل...

ولا يرد جان وإنما يتطلع إليه متعبًا..

قاعة المحكمة...

جان : (إلى إيلين) ومن يومها لم أعد نفــسي. تغيــرت. وقررت في الأول أن أناضل بسلاح العنف، وكنت آمل أن لا أستخدمه إلا ضد أعدائنا.. وأدركت أني منسحق وأن أسنان القدر تطبق عليَّ، وأني لأنقــذ

القضية يجب أن أضحي حتى بالأبرياء أحيانـــا.. ولم أستطع أن أنال حبك بل فقدت صداقة لوسيان، وبدأت سوزان تكرهني، وأحسست بنفسي وحيدًا، وأني عدت أضيق بنفسي، وليتـــك اســـتطعت أن تساعديني...

إيلين : (مضطربة) ما كنت أعلم يا جان.. ما كنت أعلم.

جان : هل قال لك لوسيان إن سوزان كتبت له؟

إيلين : سوزان؟ كلا...

جان : قبل أن تقوم الثورة وجدت مسودة خطاب في درج المكتب بخط سوزان تتهمنا فيه أننا نخونهما، لكنها لم يحدث أن ذكرت لي شيئًا من ذلك.

إيلين : ولم تفاتحني أنا أيضًا في شيء من ذلـــك.. لكـــن لوسيان لا أعتقد أنه صدقها، بل أقـــسم أنـــه لـــم يصدقها!

جان : ربما، لكن لوسيان لم يفاتحني كذلك ولم يقل لـــي شيئًا.

(إلى سوزان) واعلمي أنني هجرتك لهذا السبب ولم أعد أطيق رؤيتك بعدها.

ويمتقع وجه سوزان وتطبق على شفتيها لكنها لا تستطيع أن ترد فيستطرد جان شبه مغضب:

- صحيح أنك كنت تحبينني يا سوزان، لكني لم أكن صديقك، ما كنت تحسين أني صديقك. صحيح أنك كنت تقطعين لي اللحم في الطعام وكنت تعتنين بي كممرضة، ولكني كنت أحس دومًا أني وحيد وأنا بقربك، لم أكن أريدك، وكان خطأ ذلك خطأك وخطأي أيضًا.

(ويصمت للحظة ثم يقول لإيلين) ثم قامت الثورة ولم يكن وقتها قد حان، لكنها قامت مبكرة جدًا، ومن ثم فكان عليَّ أن أنظمها ما دامت قد قامت، ولقد فعلت وكسبناها وطردنا الوصي على العرش...

مكتب جان في القصر...

جان ومانيان وداريو وفرانسوا واقفون وسط الغرفة يتناقشون بعد احتلال القصر، وخادم جان في زاوية يرقبهم، والجماهير تحت النوافذ تضج وتهتف.. تحيا الثورة.. يعيش آجيرا... آجيرا... آجيرا!

وبينما داريو ولوسيان ومانيان مبتهجون متحمسون نجد جان مقطبًا وداريو يربت على كتفيه ويشير برأسه إلى النافذة.

- اذهب إليهم...

جان : حاضر.

يتطلع إليه داريو ومانيان في دهشة...

مانيان : جان... ألست سعيدًا؟

جان : (يهز رأسه) حدثت الثورة بأسرع مما يجب ومبكرة جدًا، لكن الأصعب هو ما بعدها، ومع ذلك علينا أن ننقذها الآن.

تعلو هتافات الجماهير...

داريو : يجب أن تخطب فيهم...

يتردد جان ولكنه يقر قراره، ويذهب إلى النافذة وفي نفس

اللحظة يدخل حاجبه ويصل إليه ويهمس في أذنه شيئًا فيقول جان:

- كنت أتوقع ذلك... سأذهب.

ويمضي خلف الحاجب إلى غرفة انتظار صغيرة يجد فيها السفير كوت الذي ينحني أمامه باعتداد مهذب...

- أنت رئيس الحكومة الجديدة؟
- أجل وأنت سفير حكومة...
- أجل... هل أستطيع أن أجلس؟
- تفضل.. (مشيرًا إلى كرسي) اعذرني نسيت.
- (متطلعًا حوله) كان هذا القصر مسكن الوصي.
- ادخل في الموضوع رأسًا.
- (يتنحنح) كلفتني حكومة دولتي أن أبلغكم أنها لا تنوي التدخل في شؤونكم الداخلية، وبالتالي فهي تعترف بحكومتكم يا صاحب الفخامة...
- عظيم.
- لكن هناك نقطة ينبغي أن نستوضحها لأنها تمس

مصالح رعايانا إذ يجب أن يظل مفهومًا أنكم ستحافظون على الوضع القائم فيما يتعلق بامتيازات البترول.

- سأحيطك علمًا بما سنقرره في الوقت المناسب.
- إن حكومتي ستعتبر كل ما يمس أملاك رعايانا بادرة عدوان، ودعمًا منها لطلبها فقد حشدت خمسة وثلاثين فرقة على طول الحدود بيننا وبينكم.
- (ينهض متطلعًا إلى السفير ببرود) إنني سعيد باعتراف حكومتكم بالنظام الجديد الذي اختارته بلادي، وأرجو أن تؤكد لحكومتك أننا نود أن نعيش مع جميع جيراننا في صداقة وود.
- وينحني جان للسفير ويقفل راجعًا إلى مكتبه حيث كانت الجماهير ما تزال تهتف تحت النوافذ فيسرع إليه داريو.
- أرجوك يا جان.. اظهر لهم.
- ويسير جان إلى الشرفة فيعلو تهليل الجماهير

ويحييهم بيده ويعود متعبًا مضطربًا...

مانيان : (معاتبًا) كانوا يتوقعون أن تخطب فيهم فلماذا لم تفعل؟

جان : ليس عندي ما أقوله لهم!

قاعة المحكمة...

جان : ولم يكن عندي ما أقوله لهم، وكـذلك لـم يكـن عندي ما أقوله لك يا فرانسوا عندما جئتني على رأس وفد عمال البترول... فالأجنبي لـم يكـن ينتظر إلا الحجة التي يتدخل بموجبها لـسحقنا، وكان علينا أن نصمد، وما كان يجب أن نمـس مسائل البترول حتى ننقذ الثورة أولاً.

فرانسوا: (متطلعًا إليه في برود) وكم من الوقت كان يلزمك للصمود؟ ما الذي كنت ترجوه من الصمود؟

جان : كنت أرجو الصمود بضع سنين، فبعد سـنتين أو ثلاث ستنشب الحرب بين دولتين كبيرتين تعرفهما

جيدًا، فهذا أمر حتمي لا مناص منه، وفي هذه الحالة ستسحب القوات التي تهدد حدودنا، وعندئذ تنطلق أيدينا.

فرانسوا: لكن لو حدث وغزت تلك القوات بلادنا لتطمئن على مواردها من البترول وتدفقه إليها؟

جان : كنا نستطيع صد قواتهم، لأن ما يتبقى منها لغزونا سيكون ضئيلاً.

فرانسوا: وحتى يحدث ذلك كان عليك أن تقيم نظامًا ديمقراطيًا في البلد لكنك لم تفعل؟

جان : لو فعلت لكان أول قانون تصدره الجمعية التأسيسية هو تأميم البترول، ومعنى ذلك غزو بلادنا وتصفية الثورة.

(إلى إيلين) وبدؤوا يكرهونني... كلهم... العمال والفلاحون... كل أصدقائي... حتى لوسيان... لكن كان يجب أن أصمد خمسة أو ستة أعوام ووسط كل هذه الكراهية (مشيرًا إلى الجمهور)

أجل وسط كل هذه الكراهية... انظروا الكراهية في أعينهم.. كرهوني خمس سنوات... وكنت أعرف أنهم يكرهونني، لكني آليت أن أحمل العبء إذ ما كان هناك يد من ذلك. وكان عليّ أن أصمد... وهكذا بدأت أشرب.

مكتب جان في القصر...

جان يشرب كأسه ويضعه فارغاً وأمامه لوسيان وداريو وإيلين على مكتبها...

لوسيان : (إلى داريو) هيا اذهب إنه لن يستطيع أن يطرودني كالخادم..

ويخرج داريو ويبقى لوسيان...

لوسيان : أرجوك... افهم... لن تستطيع أن تفرض هذا التطور الخطير على فلاحينا في يوم وليلة؛ هذه مسألة تحتاج إلى سنوات من الدعاية والتحضير النفسي والتوعية لحملهم على قبول التصنيع

الزراعي.

جان : لكن معنى ذلك أن المجاعة ستفترس البلد في ستة أشهر.

لوسيان : أمم البترول تجد المال اللازم لشراء القمح.

جان : لا أستطيع.

يتطلع جان أمامه في حلم يقظة فيرى دبابات العدو تكتسح السهول والحقول... بينما صوت لوسيان يقول:

- أتوسل إليك يا جان.. الوقت لم يفت.. أرجوك.. غيّر سياستك.

لكن جان لا يزال في حلمه ويقول متعبًا..

- لا أستطيع لا أستطيع..

وتختفي الدبابات من أمام عينيه ليحل محلها وجه لوسيان الغاضب..

- في هذه الحالة لا تعول على تأييدي لك.

ويخرج بسرعة فيضرب جان المنضدة بكأسه الفارغ ويسرع الخادم فيملأه، وينهض جان ويسير ثم يعود ويجلس متطلعًا إلى إيلين منتظرًا العون ونسمع صوته مدويًا.

- العنف.. العنف دائمًا.. كان يجب أن أنقذهم بالقوة فاضطررت إلى نشر وسائل الزراعة الصناعية في الريف بالقوة... ماذا فعلت يا إلهي حتى يحكم عليَّ بأن أعيش في العنف؟ ما الذي أستطيعه غير ذلك؟

قاعة المحكمة...

جان : (متجهًا إلى إيلين محدقًا) ماذا كنت أستطيع أن أفعل؟ ليتك استطعت أن تساعديني؟ ليتك فعلت! ألم تفهمني أني كنت أستنجد بك؟ ألم تقرئي ذلك في عيني؟

إيلين : لكن لماذا لم تقل لي؟ لماذا لم تتكلم؟

مكتب جان...

جان جالسًا والكأس في يده لا يزال ينظر إلى إيلين منفعلاً ونسمع صوته...

- لأني كنت أريدك، وكان حبي لك يضنيني. كنت أتمنى أن احتضنك إليّ.

يقترب الخادم من جانِ ويهمس في أذنه شيئًا ثم يشير لـــه إلى الساعة فنسمع صوت جان:

- وحصلت لذلك على نساء أخريات...

يتبع جان الخادم إلى حجرة جانبية ملحقة بالمكتب فيجد حسناء مثيرة تقول له فورًا:

- يا صاحب الفخامة إنها لـــسعادة كبـــرى أن أحظـــى بقربك... لا أستطيع أن أصدق... يبـــدو أنـــي فـــي حلم...

ويتطلع إليها جان بابتسامة ساخرة متألمة ويخرسها بقبلـــة على فمها..

ونسمع صوت جان يقول:

- النساء! والويسكي! ثم هذا الكابوس الحـــي. كـــابوس دبابات العدو تكتسح الوديان والسهول...

قاعة المحكمة...

جان : "إلى إيلين" والباقي تعرفينـــه... دمـــر الفلاحـــون الجرارات وأحرقوا المحاصيل وكنت أعرف ماذا

يجبرهم على الرضوخ. أن أحرق بعض القــرى وأعتقلَ الآلاف حتى أحطم ثورتهم، فالبلاد لا تزال بين أسنان القدر، وكان يجــب الانتظــار ســت سنوات... لكن لوسيان طبع منشوره السري...

مكتب جان في القصر...

جان جالسًا إلى مكتبه وأمامه وزير العدل يلوح بنسخة من صحيفة الضياء السرية صائحًا..

- هل قرأت؟ يجب أن تشنقه!

يضرب جان المكتب بيده ويذهل الوزير ويتوجه إلى النافذة ثم يشير إلى جان الذي يتبعه ويتطلع الاثنان من النافذة فيريان غلامًا على الناصية يوزع الصحيفة السرية على المارة..

مانيان : هذا ما يجري في كل البلد، وعمــال البتــرول ينتظرون هذه الإشارة ليهبوا ثائرين فيجب إعادة النظام وإخافة هؤلاء العمال...

جان : (صامتًا ينقر على النافذة ثم) اعتقل لوسيان..

فنسمع جمهور المحكمة يزجر غاضبًا... ثم...

قاعة المحكمة..

الجمهور يصفر ويستنكر وجان يتطلع إليه غاضبًا لكن دون أن يرى شيئًا ثم يلتفت إلى إيلين...

- لم أغمض عيني سنة كاملة.. لم أذق النوم...

ويتوقف وعيناه على إيلين ثم تغيمان في الذكرى...

غرفة نوم جان في القصر...

جان مستلقيًا على السرير يتقلب ثم نسمع صوته يقول:

- العنف... العنف...

وتتابع الصور أمامه.. فيرى نفسه مع لوسيان يرفع اليهودي القتيل.. ونرى معه بنجا يسقط مقتولاً يرمقه بكراهية ونسمعه في نفس الوقت يقول: العنف...

ونرى معه قرى تحترق والمدافع الرشاشة تنطلق والدبابات تكتسح الحقول وصوته يردد مدويًا: العنف...

وفجأة ينهض مناديًا..

- كارلو... كارلو...

ويدق الجرس ويحضر الخادم فيأمره قائلاً:

- ويسكي..

ويحضر له الويسكي فيقول له:

- اذهب استدع لي داريو حالاً.

ويعب كأس الويسكي ويصب لنفسه الكأس الثاني.

ثم ينهض يرتدي الروب ويجلس على السرير ويدخل الخادم ومعه داريو فيسأله جان:

- هل قابلت لوسيان؟

- أجل رجعت من عنده من ساعتين فقط.

- ولماذا لم تأت لرؤيتي؟

- ظننتك نائمًا؟

- إني لا أنام. قل لي، هل أبلغته عرضي؟

- قلت له إنك ستفرج عنه إذا تعهد بالتزام الهدوء.

- وبماذا أجاب؟

- قال إنه سيواصل الكتابة ضدك في نفس اليوم الذي سيخرج فيه.

- (بغضب) إذن هيا اذهب.

فلا يتحرك داريو...

- قلت لك اذهب .. اذهب بحق الله...

ويخرج داريو ببطء ويصب جان لنفسه كأسًا أخرى يعبهـا عبًا.

قاعة المحكمة...

جان : (لإيلين) وذات يوم قيل لي إن لوسيان مريض فذهبت لأراه...

المعتقل...

تتوقف سيارة جان البيضاء أمام المعتقل ويخرج منها جان فيحييه ضابط يقوده إلى مستشفى المعتقل ثم إلى لوسيان نائمًا وحده على سرير في ركن وقد هزل ولمعت عيناه، ويلتفت جان إلى الضابط..

- دعنا وحدنا.

ويخرج الضابط فيحمل جان كرسيًا ويجلس قرب لوسيان الذي يبتسم له ابتسامة شاحبة فيقول له جان بصوت مختنق:

يا أخي الصغير...

لوسيان : كنت أكرر على نفسي أنك ستزورني.

جان : هل تشعر بألم؟

لوسيان : كلا.. لكني لم أعد أتحمل.

جان : (يمسك بيده) هل تكرهني؟

لوسيان : كلا إنما أرثى لك. لو كنت مكانك لاحتفظت بيدي نظيفيتين حتى النهاية.

جان : ومع ذلك فلست آسفًا على شيء.

لوسيان : (يسحب يده من يد جان) يداك مخضبتان بالدم..

جان : أعرف ذلك.. لكن... أتعتقد أني ما كنت أود أنا الآخر أن أبقى نظيفًا؟ لو كنت مثلك لكان الوصي على العرش قد عاد إلى الحكم. النظافة في الحكم ترف، وأنت استطعت أن تتمتع بهذا الترف لأنك وجدتني قربك ألطخ يدي من أجلك ونيابة عنك.

ويفتح الباب ويدخل مسجونان فيعتدل جان في جلسته بينما يحمل المسجونان مزودين من الطعام ولا يلبث أن يلحق بهما حارس يصرخ فيهما...

- اخرجا...

ويخرج المسجونان مغتاظين...

وينحني جان على لوسيان يسأله...

- ما هذا؟

- رفيقان من رفاق المعتقل... سيأكلان في الخارج لأنك جئت تزورني، (يخفض جان رأسه) ليس من أجلي، بل من أجلهم أحمل عليك مطالبًا بالإطاحة بك.

- (يرفع رأسه غاضبًا نوعًا ما) قلت لك إني لست آسفًا على شيء. كان يجب إنقاذ الثورة فلو أممت البترول لقامت الحرب.

- (بدهشة) لماذا لم تقل ذلك للناس؟

- ما كنت أستطيع.

- إذن هل كان يجب اعتقال كل هؤلاء الناس لإنقاذ الثورة؟

- قل لي، أتعتقد أن عدد المعتقلين لن يكون أكثر مائة مرة لو أن الأجنبي أعاد الوصي على العرش إلى

الحكم؟ كان عليّ أن أختار بين أهون الشرين. (ينهض ويسير رائحًا غاديًا إلى جوار السرير) إن البلد كله ضدي، وفي خلال سنة أو اثنتين سيقوم انقلاب ضدي، وسأعدم رميًا بالرصاص.

- ماذا تعني؟

- أعني أني أكون قد صمدت بالبلاد خمسة أعوام، أما الذين سيخلفوني فلن يستطيعوا اتباع سياسة غير سياستي. الثورة وحدها هي التي ستنقذ، وسيعود المعتقلون، ويمكن بعد ذلك تأميم البترول وإسعاد الناس، لكن ذلك كله سيكون بفضلي.. بفضلي أنا الطاغية الذي لا أزال ملعونًا منهم.. وأنت يا لوسيان ماذا فعلت؟ وماذا يجدي التحدث عن العدالة إن لم يكن مشفوعًا بمحاولة تحقيقها.

- (بيأس) لماذا تقول لي ذلك؟ أتريدني أن أموت يائسًا؟

- كلا، كلا يا لوسيان. (يجلس إلى حافة سريره) أتظن أني لست يائسًا من مستقبلي. لقد تحملت كل شيء...

تحملت مسؤولية جميع الذين مـــاتوا وقتلـــوا، حتـــى مسؤولية موتك.. ولهذا فإني أضيق بنفسي...

- جان أعتقد أني أفهمك الآن. (يرفع جان إليه رأســـه) هل كانت رغبتي في البقاء طاهرًا لا أمارس الشيء.. عن رغبة في شيء؟

- لا أظن... في اعتقادي أن الحياة لا بد أن تضمنا نحن الاثنين، لا بد أن يوجد فيها أناس مثلي وأناس مثلك. إننا يا لوسيان عملنا ما استطعنا، ومع ذلك فذات يـــوم سيغزون القصر وسيحكمون عليَّ بالإعـــدام، وإنـــي لأكاد أتمنى ذلك. لا يهمني أن أموت، لكـــن يهمنـــي شيء واحد، أن تبرئني أنت؟

- (يصافح يده بقوة) لقد فعلت ما استطعت..

- (يأخذ كتفيه ويضمه بقوة) يا أخي الصغير..

قاعة المحكمة...

فرانسوا: ما الذي يثبت لنا أنك تقول الحق؟ ما الذي يثبت لنا أن لوسيان أبرأك؟

- لا شيء.. صدقوا ما تشاؤون.. (إلى إيلين) أتصدقيني يا إيلين؟ هيه؟

- إنني أصدقك..

ويتبادلان النظرات العميقة، فيختفي كل الموجودين إلا منهما الاثنين فقط.. ونسمع صوت فرانسوا يردد..

- رفعت الجلسة..

ومن جديد يتدافع الجمهور إلى الخروج وينسحب المحلفون للمداولة، ويبقى بعض المتفرجين في أماكنهم وجان في مكانه واقفًا، وإيلين تقترب منه مضطربة، فيسألها جان..

- أتصفحين عني؟

- إنني أصدقك.. أصدق كل ما قلته..

- لم أكن أتمنى ذلك إلا قبل موتي..

- (بيأس) لماذا لم تقل هذا من قبل؟ لماذا لم تقل أبدًا أنك كنت تحبني؟

- كنت أعتقد أني كنت أخيفك.. أحببتك حبًا شديدًا.. من أول يوم..

وتتألق عينا إيلين بالدموع وتقول:

- وأنا يا جان أحببتك يوم أن رأيتك، وكان الخطأ خطئي لأني كذبت على نفسي كبرًا.. لأني أحببتك ولكنك كنت تخيفني، فقد كنت أجدك أقوى وأقسى مما يجب. أما لوسيان فكان مثلي وشبيهي، وتزوجته بدافع الجبن، وخيل إليّ أنك لست في حاجة إلى أحد، وأردت أن أتحداك. سامحني أنت أيضًا..

- إيلين!

ويهم بالكلام لكن المحلفين يعودون ويدخل الجمهور بهرجه مرة أخرى فيفترق جان وإيلين ويعود كل منهما إلى مكانه وما يزالان ينظران إلى بعضهما..

وينهض رئيس المحلفين فيسكت الجمهور بإشارة من يد فرانسوا، ويعلن قائلاً:

- لقد وجدت هيئة المحلفين المتهم مذنبًا بالنسبة إلى جميع التهم الموجهة إليه.

ويجلس رئيس المحلفين فينطق فرانسوا بالحكمة بكلمة واحدة..

- الإعدام..

ويصفق الجمهور ويهتف، ثم ينتهي كل هذا سريعًا ويسود الصمت، وينهض جان فيقف إلى يمينه ويساره حارسان يقودانه إلى نهاية القاعة، وتنهض إيلين تريد أن تلقي بنفسها على جان لكن فرانسوا يمنعها.. وعندما يمر جان بها يبتسم لها فتزعق عليه..

- جان.. إني أحبك..

- شكرًا يا إيلين..

ثم يمضي بين الحارسين...

مكتب جان في القصر...

السفير يحادث فرانسوا بأدب لكنه يهدده رغم ذلك وفرانسوا يستمع بوجه غاضب..

- إن حكومتي لا تتمنى أكثر من أن تقوم بينها وبين حكومتكم علاقات ودية، على أنها قد كلفتني أن أحذركم من أنكم إذا أممتم البترول ونزعتم يد رعايانا

عن ممتلكاتهم فإن حكومتي ستعتبر ذلك منكم بـــادرة عداوة وإعلان حرب..

- لكن ليس لحكومتكم أن تتدخل في شؤوننا الداخلية..
- مهلاً يا صاحب الفخامة.. هل أذكركم بـــأن بلادكـــم صغيرة وبلادي كبيـــرة جـــدًا. (صـــمت لفتـــرة) إن حكومتي تنتظر إجابة صريحة..
- لن نمس امتيازات البترول..
- (ينحني بابتسامة ساخرة سخيفة) لم نكن ننتظر أقل من هذه الحكمة يا صاحب الفخامة..

وينسحب السفير فيدخل الخادم ويتجه إلى فرانسوا قائلاً:

- إن وفدًا من عمال البترول ينتظر مقابلتكم يا صـــاحب الفخامة؟
- انتظر.. أعطني كأسًا من الويسكي..

فيملأ الخادم الكأس ويفرغه فرانسوا مرة واحدة ثم يـــشير إلى الخادم بسحنة مقلوبة..

- أدخلهم...

ختام

تاريخ حياة طاغية

هذا الكتاب من أفضل وأرقى وأحسن الكتب في مجال الكتابة للسينما، وهي فن وأدب عالٍ، وهي سيناريو سياسي أخلاقي فلسفي من الكتب التي لا بد أن تُقتنى وتُدرس بتمعن. والحِرَف السينمائية فيها عالية علوًا كبيرًا، وسارتر كما هو كاتب مسرحي وكاتب فلسفي، فهو كاتب قصة، وأدبه من الآداب العالية Sublime، وهذا العلو يتمثل في سيناريو فيلم "تاريخ حياة طاغية" وعنوانه l'Engranage أي الاشتباك، ولكنني غيّرت الاسم إلى موضوع السيناريو نفسه، فهو عن حياة طاغية، بدأ مناضلاً إلى أن انتصرت الثورة وتبوأ الحكم، فتحوّل من أجل المنصب والحياة المرفهة إلى عميل للاستعمار الأمريكي، غير أن بلاده لا تعدم الأبطال، ومثلما أخرجته بطلاً في يوم من الأيام، فإن آخرين يتخرجون بحكم الأحداث، وأثناء ذلك تكون الاشتباكات والتداخلات والارتباطات، وما نسميه الآن باسم الثورة الخلّاقة، وهي خلّاقة بمعنى ولّادة، والشعوب لا تموت، والطغيان دائمًا إلى زوال ونهاية، إن عاجلاً أو آجلاً، كما هو الآن في بلادنا العربية والإسلامية، وفي مصر الآن.

المترجم



MADBOULY BOOKSHOP مكتبة مدبولى
6 Talat harb SQ. Tel:25756421 ٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة - ت: ٢٥٧٥٦٤٢١
www.madboulybooks.com - info@madboulybooks.com